إرهاصات نبوّة

خاتم المرسلين محمد ﷺ

محمد علي قطب

الدار الثقافية للنشر

إرْهاصاتُ نُبُوَّة خاتم المرسلين
محمد ﷺ

محمد على قطب

الدار الثقافية للنشر

عنوان الكتاب : ارهاصات نبوة خاتم المرسلين محمد ﷺ
تألـــــيف : محمد على قطب
14 x 21 سم . 160 ص .
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : 2003/9336
اسم الناشر : الدار الثقافية للنشر

Erhasat Noboat
Mohamad Ali Qutb
14 x 21 cm. 160 p.
ISBN: 977 - 339 -119 -1

الطبعة الأولى

1425 هـ/ 2004 م

الدار الثقافية للنشر – القاهرة
ص.ب 134 بانوراما اكتوبر 11811 – تليفاكس 4035694 - 4172769
Email: nassar@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله ،

نحمده تعالى ونشكره ، ونتوب إليه ونستغفره، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْده الله فلا مُضلّ له ، ومن يُضلل فلا هادى له، ونَشْهَدُ أن لا إله إلا الله وحْده لا شريك له ، له المُلْك وله الحمد يُحْيى ويميت وهُو على كل شىء قدير ونَشْهَدُ أن سيِّدنا ونبيِّنا ومَوْلانا «محمدا» عَبْدُ الله ورسُوله، أرْسَلَهُ بالهُدى ودين الحق ليُظهره على الدين كُلِّه ، فبلغ الرسالة، وأدَّ الأمانة ونصَحَ الأمَّة، وكشف اللَّه به الغمَّة ، وجاهد فى الله حق جهاده، حتى أتاهُ اليقين ، وتركنا على الَحَجَّة البيضاء ليْلها كنهارها لا يَضلُّ عَنْها إلا زائغ هالك، صلوات الله وسلامهُ عليه وعلى آله الطاهرين وأصْحابه الغرّ المحجلين ومن تبعهم بإحسان، صلاةً وسلاماً دائمين إلى يوم الدين .

وبَعْدُ . . !

فما أكْثر ما كتب فى هذا الشّأن العظيم والأمر الجلل ، قديماً وحديثاً، إضطلع به أعلام العلماء المتخصصين ، ودبَّجوا بيراعهم صحائف وأسفاراً ، وأجالوا أفكارهم وعقولهم فى مناحيه ،

واستنبطوا من الشواهد الثابتة والحقائق الناصعة الدامغة ما تزخر به كتبهم وآثارهم .

لكن ذلك التراث ظل محصوراً فى إطار من الحواجز المرجعية ، يصعب على الأكثرية الساحقة من طلاب المعرفة تناولها بيسر وسهولة، إما لضخامة المؤلف ، وإما لعسر آقتنائها . . ، وإما لتعقيدات فى أسلوبها وإنشائها .

ولقد قدر لى ، بتوفيق من الله تعالى ، أن أحاول جهدى كى أتناول الموضوع ، متجاوزاً تلك الحواجز والموانع ، فأقدمه للقارىء العزيز فى هذا الكتاب : «إرْهاصات النُّبوَّة» .

ولا يخفى ما فى هذا العمل من صعوبات ومشقات ، ودأب وسعى وتفرغ . . ، ومحاذير . . ! فجعلت كل ذلك فى اعتبارى وتقديرى متوكلاً على الله تعالى ، مستلهماً رضاه وحسن توفيقه وهداه وتدبيره !!

وأيضاً فإن الحديث عن سيدنا وحبيبنا وشفيعنا «محمد بن عبدالله» ﷺ يطيب لى دائماً وفى كل حين، ففيه سلوة للروح والقلب ، وارتقاء بالوجدان ، وسمو بالمشاعر والأحاسيس ، وذوب للكيان المادى فى بوتقة الصفاء والنقاء ، والتجليات !!!

فأكرم به من نبى ورسول ، وأكرم به من هاد وبشير ، وأكرم به من حبيب ، صلوات الله وسلامه عليه ما رف جناح وغرد طائر ، وتنفس إنسان ونطق لسان .

لماذا هذا الكتاب ؟

أما لماذا هذا الكتاب . . فقد كنت قدمت سبباً وبينته ، والحاجة إليه : العلمية والمنهجية ، وهناك سبب آخر معاصر يتعلق بشريحتين من المجتمع الإنسانى البشرى ، أولاهما الذين لا يؤمنون بالإسلام ديناً ولا بـ «محمد» ﷺ رسولاً ونبياً ، مع إقرارهم عرفاً وواقعاً بوجود «مسلمين» يشكلّون خمس سكان المعمورة ؛ واعترافاتهم المسطورة والمنشورة - قديماً وحديثاً - بهذا الوجود ، مع تفاوت فى نظرتهم ونظرياتهم ؛

أولئك لهم علينا حق فى التوضيح والبيان ، والتركيز و . . . . التبشير . . . ، ولنا عليهم حق فى الحوار والجدل والمناقشة . . . . ، وليس الصراع . . . ، حق الإنسان على أخيه الإنسان ! !

وثانيهما : شريحة تنتمى إلى هذا الدين الحنيف إسماً ورسماً ، وتحسب عليه ، ولكنها من حيث الفكر والنهج ودوافع السلوك تخالفه وتناقضه ، بل هى حرب عليه ، وترفع شعارات وتطلق عبارات هى إلى النفاق أقرب ، وبه أوصل وألزم . . !

وهذه الشريحة أخطر من الأولى كثيراً ، لأنها كالأرضة أو السوس تنخر فى الجذع تريد بلوغ الجذر!

تهدم ولا تبنى ، تحطم وتقوّض ولا ترفع مدماكا ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف : ١٠٤] .

أولئك جـميعاً نذكـرهـم بالإرهاصـات . . ! وبالبـشـريات . . ! وبالعـلامـات التي سـبقـت أو رافقت أوتبـعت نبوة سيدنا رسـول اللـهﷺ .

لا ندعيها ادعاء ، ولا نختلقها اختلاقاً . . . ولا نرويها أساطير الأولين . . . ، بل نوردها حقائق تاريخية ثابتة ، مسطرة مدونة فى الأسفار؛ فى «التوراة» و «الإنجيل» ، وما تزخر به كتب التراث على مختلف اللغات والتوجهات والانتماآت، والمستويات أيضاً !!

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨) مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ . . .﴾ الآية [الفتح: ٢٨-٢٩].

وإلى اللقاء مع صفحات الكتاب ، والله تعالى ولى الهداية والتوفيق وعليه التوكل وقصد السبيل .

محمد على قطب

فى غرة رجب الحرام ١٤٢٤
الموافق ٢٩ اغسطس ٢٠٠٣

تَوْطِئَة

لا أدرى السـبب فى ورود إسم «روجيـه غـارودى» (١) على الذهن، وإلحاحه فى الذكر وأنا فى صدد كتابة هذه التوطئة، وليس من شك فى أن اسلامه كان له دويّه وصداه، خصوصاً وأنه من رواد الفكر مع نهاية القرن العشرين، وقد طوحت به المذاهب والأفكار والآراء فى شتى الاتجاهات، حتى استقر به المقام فى الإسلام؛ وفى رأيى أن هذه النهاية كانت جد طبيعية ومنطقية لمفكر حر، وعقل نير.

وإن كنا نسمع فى كل يوم عن دخول نفر جديد فى الدين الحنيف من غير قهر ولا سيف كما زعم ولا استبداد، ولا إغراء تبشيرى – تحت مسميات سد الجوعه ومداواة المرض وإسعاف المنكوبين – !!!؟ كما هو حاصل منذ أمد وحتى الآن فى مختلف البلاد (٢).

ولم يكن «غـارودى» وحده الذى اختـار حين فكر وقدر، ثم تحول. . .، وكتب فى ذلك وبين؛ فقد سبقه آخرون، كان من أشهرهم «ليوبولد ڤايس»، الذى تسمى باسم «محمد أسد» ومن بعده «أحمد ديداث» (٣)، لقد قدر لهؤلاء وغيرهم أن يدركوا حركة التاريخ، ويرقبوا مفاصلها ونقاط التحولات الكبرى فيها، ويقفوا عند الإسلام ورسوله وقفة تأمل وتعمق.

---

(١) الإسم الذى اشتهر به بعد إسلامه: «رجاء جارودى»

(٢) خصوصاً فى افريقيا وشرق آسيا.

(٣) أنظر منشورات «المختار الإسلامى» و«دار الفضيلة».

الإسلام كدين : عقيدة وشريعة ، ونظام إجتماعى وسياسى واقتصادى استمر أربعة عشر قرناً – وما يزال ، وهو ما يزال يتعامل مع العنصر البشرى على أعلى مستوى ، فى الحقوق والواجبات ، دونما تعسف أو غصب أو استحفاف بالعقول!!

وكما وقفوا عند الرسالة وقفوا أيضاً عند الرسول ﷺ . . !

النبى الأمى . . !

راجعوا توراتهم وأنا جيلهم ، وارتدوا بعقولهم وتراثهم الفكرى إلى العمق التاريخى ؛ إلى بداية العالم وتكون الخلية البشرية الأولى ، وتسلسلوا من ثم مع أنبياء الله ورسله إلى الناس يهدونهم إلى الحق والحقيقة ويبصرونهم بالمنهج الربانى السوى .

لقد رأوا التدرج نحو التكامل والترقى من خلال الوسائل والأدوات والصورة المادية لنوعية الحياة ، مع كل نبى ورسول فى مجتمعه وقومه الذين أرسل إليهم ، ولكنهم لاحظوا دوام انحراف الناس عن الأساس والقاعدة وهى الإيمان بالله الواحد الأحد ، الخالق الرازق . . ! الذى له ملك السماوات والأرض ، وهو على كل شىء قدير . . ! ولقد ترتب على ذلك الفساد فى العقيدة واستشراء الشرك واستفحال سوء السلوك . . ! مما يؤشر بهلاك هذه المجتمعات ، وإبادتها .

فكان – أول ما كان – الطوفان . . !

الطوفان زمن «نوح» – عليه السلام . . . ، وهو بالإضافة إلى ورود خبره فى الكتب المنزلة ، كذلك هو أيضاً حقيقة تاريخية ، من

خلال الدراسات والبحوث العلمية، واستقراء التقلبات والمتغيرات االتى يشهد بها كوكبنا الأرضى لقد أهلك قوم «نوحٍ» بعامة إلا الذين آمنوا معه، وما آمن معه إلا قليل..!

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ على الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً﴾ [نوح: ٢٦-٢٧].

وتولد من هذه البقية المؤمنة قَوْمُ «هُودٍ» و«صالحٍ» عليهما السلام.

«عادُ إرم» الذين سكنوا «الأحقاف»، ما بين «عُمان» و«حضرمَوْت» والذين لهم القصور ذات العماد، والأرض الخصبة، والزروع ذات الخيرات الحسان، لكنهم ضلُّوا وأضلُّوا، وتنكبوا سبيل الهدى والرشاد...، وانتقصوا نبيهم هوداً، وتنكروا له، وكفروا بالله! فعوجلوا ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦-٨].

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ﴾ [الفجر: ٦-٨].

وبعدها جاء الدور على ثمود «قوم صالحٍ» عليه السلام...!

الذين جابوا الصخر بالواد...، نحتوا الجبال واتخذوا القصور الفارهة، وطغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد...، وكذبوا «صالحاً» - عليه السلام - وأشركوا بالله، واعتدوا على آياته لهم سبحانه.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس : ١١ - ١٥] .

وكان هلاكهم بالطاغية ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة : ٥]، صاعقة دمَّرَتْ عليهم وجودهم، وخلفت من ورائهم بـ «وادى الحجر» أثراً بعد عين، لكل ذى لب وعينين .

وهكذا توالت النبوات والأنبياء - عليهم السلام - إلى أقوامهم خاصة فى زمن محدود، ورسالة محددة (أن اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً) و(اتبعوا سبيل الرشاد) ولا تطغوا فى الأرض . . . !

إلى أن كانت نبوة «محمد» -عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام -، وقد انحرفت - بل حرفت - رسالتى «موسى» و«عيسى» - عليهما السلام - وأما بنو إسرائيل فقد أحدثوا فى كتبهم من الضلال والبدع ما يشهد عليهم، ويدمغهم . . . . ، وأما أتباع «عيسى» فقد أخذوا بالغطرسة الرومانية وطقوسها العنصرية، وتلبسوا بها فى سلوكهم التعبدى والحياتى ونهجوا نهجها .

وكانت أرض النبوات مسرحاً - على مدى قرون وأجيال - للصراع بين أمتين قويتين : «فارس والروم». . . الأرض والزرع والضرع، والشجر والبشر وقودها . . !

«فارس على مجوسيتها . . . ، والروم» على شركها . . . !

«فارس» لها عمقها الجغرافى الشمالى تُطلّ على أقوام تتجانس

معهم فى وثنيتهم . . . . و«الروم» يطلون من الغرب على عناصر بشرية بدائية ، أحقرو أقل من أن يشكلوا خطراً .

وكان لابد لهذا المجتمع الإنسانى المتقهقر - عقيدة وسلوكاً - من بَعْث جديد ، وصحوة شاملة؛ وريادة وقيادة تستنقذه من وهدة - الهبوط . . . !

لا طوفاناً . . كطوفان «نوح» . . !

ولا صاعقة كصاعقة «عاد و«ثمود» . . . !

لا إبادةً ولاهلاكاً ، بل استنقاذاً وإصلاحاً . . ! وإعادةً إلى الصراط المستقيم ، إلى الإسلام من جديد، إلى العقيدة السليمة ، والشرع القويم .

ومن هنا ندرك التطور الهائل والتغيير الشامل الذى حدث خلال أقل من ربع قرن من الزمان ، بداية من اليرموك» وانتهاءً بـ «القادسية» ! ! !

لقد حدث الانقلاب العظيم فى كيان (البدوى الجاهلى) ، ومن ثم انطلق (مسلماً) فاتحاً للقلوب والعقول ، قبل الديار والأنصار ، وبلغ ما حمله من رسالة حضارية إلى العالم كله ، قاصيه ودانيه؛ . . ! ! أمانة تلقاها من «محمد بن عبد الله» - ﷺ - فأداها . !

(أ) الإرهاصات والنبوة :

تبدو الكلمة للوهلة الأولى متغايرة المعنى اللغوى والعرفى الذى يحتويها ، فهى فى حقيقتها إثبات وليس إرجافاً ، إثبات بالرموز

والدلائل والأنجازات والإشارات، سواء كانت كونية، أو إخباراً بشرياً على الألسنة .

ولقد قدر لسيدنا رسول الله ﷺ أن يخبر برسالته ونبوته، وكونها خاتمة تامة، منذ بدء الخليقة، منذ «آدم» – عليه السلام – إلى «عيس«» – عليه السلام – .

فمنذ أن كانت المجتمعات الانسانية خلايا كان يكفيها أمران آثنان : صلتها بالخالق وتوحيده، ثم سيادة الحق والعدل فيما بينها، كي تستقيم حياتها ، وتستحق الخلافة على الأرض بالعمران .

ومع التكاثر والتناسل، وظهور الأمم والشعوب، وتباين المصالح، وتعدد الجوانب الحياتية، كان لابد من تواجد من يضبط ذلك وفق القواميس الإلهية، ومن ثم أخذت رسل الله تعالى وأنبياؤه تترى وتتتابع، وتتزايد التشريعات مع مراحل النمو .

كل ذلك كان يؤكد بأن البشرية والانسانية لم تبلغ مرحلة النضوج بعد، وأن نبياً خاتم تنتظره الأمم فى وقت تكون فيه الحاجة ماسة ونهائيةً إلى رسالته .

ولو تتبعنا – بدقة وامعان – حياة الشعوب على امتداد التاريخ، مع أنبيائها ورسل الله إليها، وما كان من أمورها فى الآنحراف والآنهيار، لأدركنا أن المسيرة طويلة، لم تنته رحلتها بعد، ولم تبلغ النهاية .

وأصغينا من ثم القلوب والأسماع إلى الهواتف الضمنية التى ترهص بنبى ينتظر، يتبوأً مكانة الهيمنة بتشريعٍ كامل ورسالةٍ تامة لا

يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، وتنزيل من حكيم حميد .

لقد كان التضليل ديدن بعض الشعوب، انقياداً للشيطان، وكذلك التحريف لما أنزل الله تعالى على رسله وأنبيائه . . ؛ لقد امتدت أيديهم إلى كتب الله تعالى، فعبثوا بها !!!، ولم يراعوا قدسية الكلمة . . !

ومن ثم أنذروا بنبي يحمل إلى الخلق والناس أجمعين كتاباً فرقاناً، يهدى إلي الحقِ . . . ! كتاباً يتكفل الله تعالى بحفظه من كل عبث وعيث ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ .

وليكون للعالمين صراطاً سوياً، ونوراً يهتدون به فى ظلمات الطيش والضلال .

نبوة «محمد» ﷺ

(أ) الخاتمة :

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب : ٤٠] .

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] .

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ . . ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

١ - روى «محمد بن جبير بن مطعم» عن أبيه قال : [سمعت رسول الله صﷺ يقول : «إن لى أسماء : أنا «محمد»، وأنا «أحمد» وأنا الماحى الذى يمحو الله تعالى بى الكفر، وأنا الحاشر الذى

يحشر الناس على قدمى، وأنا العاقب الذى ليس بعده نبى] (١) .

٢ - وروى «أبو هريرة - رضى الله عنه - قال: [قال رسول الله ﷺ : «فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لى الغنائم، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهورا، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بى النبيون] (٢) .

٣ - وعن «جابر بن عبد الله» - رضى الله عنهما - قال: [قال رسول الله ﷺ : «مثلى ومثل الأنبياء مثل رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة، فكان من دخلها فنظر إليها قال: ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة، فأنا موضع اللبنة، ختم بى الأنبياء - عليه الصلاة والسلام -] (٣) .

ما أروع ما مثل به رسول الله ﷺ كونه خاتم الأنبياء والمرسلين، وكون رسالته خاتمة الرسالات . . . ، فالبناء الذى ارتفع على مدى قرون وقرون، كل نبى ورسول يضع الله تعالى على يديه مدماكاً فى التكامل الإيمانى، والتناسق الدينى، فى العقيدة والمنهج، وفى أمم شتى . . . ، إنما كان الغرض منه تواصل الرسالات والنبوات إلى بنى «آدم» أن لا يعبدوا إلا الله، ويهذبوا سيرة تلك الأمم والشعوب، كى

---

(١) البخارى ومسلم .
(٢) قال الترمذى : حسن صحيح .
(٣) رواه البخارى ومسلم والترمذى .

تعمر الأرض وتزدهر، فيكونوا بحق وصدق خلفاء كما أرادهم خالقهم ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة : ٣٠].

فالرسالة واحدة من لدُنْ آدم – عليه السلام – حتى خاتمهم سيدنا رسول الله ﷺ – محمد بن عبد الله – ، وهى (الإسلام) ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران : ١٩].

إسلام العقل والقلب والجوارح لله رب العالمين . . . ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام : ١٦٣].

انظروا إلى قول أبى الأنبياء «إبراهيم» – عليه السلام – : ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة : ١٣١] وانظروا إلى وصيته لذريته : ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٢].

وانظروا أيضاً – إلى وصية «يعقوب» عليه السلام – حين حضره الموت ﴿ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة : ١٣٣].

وانظروا – كذلك – إلى رسالة «سليمان» – عليه السلام – إلى ملكة سبأ – بلقيس – ، ماذا قالت لرجال حاشيتها : ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ

الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل : ٢٩ - ٣١] .

وانظروا - أيضاً - إلى جوابها حين أقرت بضعفها وعجزها أمام السلطان الذى أوتيه «سليمان» - عليه السلام - من رب العالمين : ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل : ٤٤] .

انظروا . . . وتدبروا . . ! واسمعوا وعوا . . !

إن الإسلام دين الأنبياء جميعاً ، لأنه الدين عند الله تعالى ، ورسالته إلى الناس جميعاً . . . ، فى مختلف العصور والدهور . . !

تلكم الرسالة ظلت فى نشوء ونموٍّ ، تتوافق مع تدرج الإنسان ، حتى اكتملت على يد سيدنا ونبينا «محمد» - ﷺ - ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾

[المائدة : ٣]

إنه ﷺ اللبنة التى اكتمل بها البناء ، حسناً وجمالاً ، وإشراقاً وبهاءً .

وبالاكتمال يكون حسن الختام؛ وتمام الأمر .

وأيضاً . . . ففى العرف أن الرسالات لابد أن تمهر وتختم بخاتم ، لتكون بين المتراسلين أوقع وأبين وأصدق . . . ، فما قولنا إذا كان الله تعالى - جل جلاله - هو المرسل !!! وأن «محمداً» ﷺ هو الخاتم . . !! والرسالة : الإسلام إلى الناس جميعاً !!! .

(ب) العالمية

(أ)

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ . . . ﴾

[المؤمنون : ٢٣]

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ . . . ﴾

[النمل : ٤٥]

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾

[الشعراء : ١٢٤ - ١٢٦]

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات : ١٣٩ - ١٤٧]

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾

[إبراهيم : ٥]

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾

[الروم : ٤٧]

﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف : ٦] .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴾ [الشعراء : ١٦١]

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم﴾
[الصف : ٦]

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [النحل : ٣٦]

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ . . .﴾ [يونس : ٤٧] .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد : ٣٨]

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف : ٦] .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ . . .﴾ [غافر : ٧٨] .

(ب)

﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ [النساء : ٧٩] .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ [سبأ : ٢٨] .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ [النساء : ١٧٠]

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾
[التوبة : ٣٣]

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾
[الفتح : ٢٨]

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾
[الصف : ٩]

إن بين الرسالة الخاتمة وعالميتها ترابط وتواصل وثيقان، وحتمية منطقية، وذلك من ناحيتين: زمنية ودينية .

أما الزمنية فهى تتابع الرسالات إلى الأمم والأقوام عند الضرورة والاقتضاء، حيث تضل العقول وتضطرب الأفهام وتزيغ النفوس والأهواء ، ويختل الميزان . . ! ويذر قرن الشيطان . . ! ويكاد يعلو على «بنى آدم»!

فيبعث الله تعالى الأنبياء والرسل مبشرين ومنذرين، يختارهم من بنى جلدتهم وبلسانهم ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ . . ﴾ [يونس : ٤٧] .

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً . . . ﴾ [النحل : ٣٦]

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ . . ﴾ [إبراهيم : ٤]

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [المائدة : ٣٢]، ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] .

والأنبياء - عليهم الصلاة السلام - أكثر من أن يحصوا ويعدوا كثرة على مدى الأزمان من لدن «آدم» - عليه السلام إلى خاتمهم «محمد بن عبد الله» - ﷺ - منهم من جاء ذكرهم فى القرآن الكريم، ومنهم من لم يذكر ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ [غافر : ٧٨]؛ والشأن فى ذلك تكاثر الأمم والشعوب والأقوام، فى أنحاء المعمورة، واستغلا. الباطل على الحق أحياناً، فكان لابد من تصويب مسيرة تلك الأمم برسالة ورسول ، ودعوة ونبى، واستنفاذها من براثن الشيطان، وغوايته واضلاله .

وقد تختلف الفترة الزمنية بين نبى ونبى طولاً وقصراً ، حسب المقتضيات والدواعى والأسباب ، وقد تكون بعض الأمم أدعى إلى ظهور أكثر من نبى فيها ورسول ، لما جبلت عليه وما توارثته من طباع ، وما ركب فيها من خلق . . . ، وليس ذلك حجةً لها بل حجةً عليها . . . ، وليس ذلك مزيةً لها بل دمغاً بالهوان ؛ شأن «بنى إسرائيل» . . ! الذين كانوا أكثر الأمم رسلاً وأنبياء . . ؛ فكذبوا البعض وقتلوا البعض الآخر (١) . . ! ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة : ٨٧] .

بدأت النبوة لديهم بـ «يعقوب» - عليه السلام - ؛ وانتهت بـ «عيسى» - عليه السلام - . . !

أما ادعاؤهم بيهودية إبراهيم - عليه السلام - فباطل لا حجة لهم فيه ، وخواء زمنى وتاريخى فكيف يكون يهودياً وقد ظهرت اليهودية من بعده ! ! ؟ ؟ ، ويكفى قول الله تعالى فى الرد على دعواهم ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران : ٦٧] .

وأما الدينية فإن واقع الجزيرة العربية عند بعثة سيدنا رسول الله ﷺ تجتمع فيه العناصر التالية :

اليهودية والنصرانية والوثنية ، والمجوسية فى الطرف الشرقى - الشمالى منها . . !

---

(١) كما فعلوا بـ «زكريا» و «يحيى» - عليهما السلام - .

اليهودية متمثلة فى بعض القبائل التى كانت تقطن «يثرب» و «خيبر» وما حولهما ؛ وفى بعض الأماكن المتفرقة من الحجاز« . . . . ، حتى «اليمن» (١) .

والنصرانية تتمثل فى «نجران» وغيرها ، ممن ورثوا هذا الوجود من خلال التبعية التى كانت لـ «اليمن» إلى الحبشة ، وكذلك قبائل «غسان» و«لخم» و «جذام» على أطراف «الحجاز» مما يلى «الشام» الذين تأثروا بالروم ، فتابعوهم .

أما الوثنية فكانت عليها أكثر القبائل العربية ، التى كانت تدعى صلتها بـ «إسماعيل» و «إبراهيم» - عليهما السلام - ، فى تخريف وزور وبهتان . . !

وأما المجوسية فكانت فى «فارس» وأدنى «العراق» ولم يكن لها تأثيرها فى مُعْتقد العرب ، اللهم إلا ماكن لها من نفوذ سياسى على «المناذرة» . . . ، ثم الطروء الذى أحدثوه فى «اليمن» .

وتلكم هى الخريطة الدينية التى كانت تسود العالم المعروف يومئذ ، وشعوبه وأممه . . ، ولقد تمثلت فى الجزيرة العربية . . !

وللقضاء على كل تلك الانحرافات والمعتقدات الباطلة ، كان لابد من رسالة ورسول . . . !

رسالة تواجه كل ذلك ، ومن هنا كانت العالمية !

---

(١) وهناك قصة أخرى (يرجى مراجعة ذلك فى (البداية والنهاية)(ج : ٢) (ص : ٢٠٦-٢٠٩)] (وكذلك قصة أصحاب الأخدود) .

ورسول يحملها إلى الناس كافة . . ، ومن هنا - أيضاً - كانت العالمية !

رسول خاتم يحبط بما يحمل من منهج رباني كل الرسالات ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة : ٣٣] [الفتح : ٢٨] [الصف : ٩] .

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الاعراف : ١٥٨] .

(ج)

(الهيمنة) ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة : ٤٨] يقول الإمام «ابن كثير» - رحمه الله - في تفسير ذلك : (١) .

(لما ذكر «الله» تعالى «التوراة» التي أنزلها على «موسى» كليمه ، ومدحها وأثنى عليها ، وأمر باتباعها ، حيث كانت سائغة الاتباع ، وذكر «الإنجيل» ومدحه وأمرَ أهله بإقامته واتباع ما فيه ، شرع في ذكر القرآن العظيم الذي أنزله على عبده ورسوله الكريم ، فقال تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي بالصدق الذي لا ريب أنه من عند الله ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي : الكتب المتقدمة المتضمنة ذكره ومدحه ، وأنه سينزل من عند الله على عبده ورسوله «محمد» - ﷺ - ، فكان نزوله كما أخبرت به ، مما زادها صدقاً عند حامليها من

---

١ - (ج : ٢) (ص : ١٠٤) .

ذوى البصائر الذين انقادوا لأمر الله، واتبعوا شرائع الله، وصدقوا رسل الله - كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴾ [الإسراء : ١٠٧-١٠٨]، أى : إن كان ما وعدنا الله على ألسنة رسله المتقدمة من مجيء «محمد» - عليه السلام - لمفعولاً ، أى : كائناً لا محالة ولا بد .

وقوله تعالى : ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ قال «سفيان الثورى» عن «أبى إسحاق»، عن «التميمى» عن «ابن عباس» : أى مؤتمناً عليه .

وقال «على بن أبى طلحة» عن «ابن عباس» : المهيمن : الأمين، قال : القرآن أمين على كل كتاب قبله .

وروى عن «عكرمة» و«سعيد بن جُبَيْر» و«مجاهد» و«محمد بن كعب» و«عطية» و«الحسن» و«قتادة» و«عطاء الخراسالى» و«السدى» و«ابن زيد» نحو ذلك .

وقال «ابن جريج» : القرآن أمين على الكتب المتقدمة قبله، فما وافقه منها فهو حق، وما خالفه فهو باطل .

وعن «الوالبى» عن «ابن عباس» : ﴿وَمُهَيْمِنًا﴾ أى : حاكماً على ما قبله من الكتب .

وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى، فإن إسم المهيمن يتضمن هذا كله، فهو : أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله، جعل الله هذا الكتاب العظيم الذى أنزله آخر الكتاب (الكتب) وخاتمها أشملها وأعظمها وأكملها، حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من

الكمالات ما ليس في غيره، فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها، وتكفل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة، فقال تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر : ٩] إ - هـ .

البشرى على لسان الأنبياء - عليهم السلام -

(أ) من «آدم» إلى «نوح» - عليهما السلام - .

قال الله تعالى :

﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح﴾ [الأعراف : ٧]

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدم مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف : ١٧٢]

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لما آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ به ولتنصرُنَّه قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وأنا معكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران : ٨١] .

وفي صحيح «البخاري» عن «ابن عباس» - رضي الله عنهما - قال : [ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث «محمد» وهو حي ليؤمنن به ولينصرُنَّه، وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق لئن بعث «محمد» وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرُنَّه وليتبعنه] يقول الإمام «ابن كثير» - رحمه الله - : (يعلم من هذا أن جميع الأنبياء بشروا وأمروا باتباعه) - ﷺ - .

وفي رواية للإمام «أحمد» - عن أبي أمامة - قال : [قلت يا رسول الله ما كان بدء أمرك؟ قال : «دعْوة أبي «إبراهيم»، وبشرى «عيسى» ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت له قصور الشام»] .

ويقول الإمام «ابن كثير» - رحمه الله - : (معنى هذا أنه - ﷺ - أراد بدء أمره بين الناس ، واشتهار ذكره وانتشاره، فذكر دعوة «إبراهيم» الذى تنسب إليه العرب [1]، ثم بشرى «عيسى» الذى هو خاتم أنبياء «بنى إسرائيل»؛ يدل هذا على أن من بينهما من الأنبياء بشَّر به .

أما فى الملأ الأعلى فقد كان أمره مشهوراً مذكوراً معلوماً ، من قبل خلق «آدم» - عليه الصلاة والسلام - كما قال الإمام «أحمد» . . . عن « العرباض بن سارية» قال : [قال رسول الله « ﷺ » : «إنى عبد الله خاتم النبيين، وإن آدم» لمجندل فى طينته، وسأنبئكم بأول ذلك، دعوة أبى «إبراهيم» ، وبشارة «عيسى» «بى، ورؤيا أمى التى رأت، وكذلك أمهات النبيين»]) .

وفى «دلائل النبوة» [2] من حديثه «أبى هريرة» - رضى الله عنه - قال : [سئل رسول الله « ص » : متى وجبت لك ا النبوة؟ قال : بين خلق «آدم» ونفخ الروح فيه»]

وفى حديث عن «أبى هريرة» - رضى الله عنه - فى قوله تعالى : ﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح﴾ [قال رسول الله « ﷺ » : كنت أول النبيين فى الخلق وآخرهم فى البعث»] [3] .

---

(١) من خلال «إسماعيل» - عليه السلام .

(٢) رواه «عمر بن أحمد بن شاهين» .

(٣) الإمام «البغوى» .

وعن «ابن عباس» - رضى الله عنهما - : [قيل : يا رسول الله متى كنت نبياً؟ قال : وآدم «بين الروح والجسد»] (١) .

وليس المقصود من قوله - ﷺ - : [«كنت أول النبيين بالخلق وآخرهم فى البعث»] - فى الحديث المذكور آنفاً - الخلق البدنىّ والتكوين البشرى الجسمانى ، إنما المراد - والله أعلم - الاختيار الربانى لأنبيائه ورسله من صفوة «بنى آدم» ، ومرد ذلك إلى علمه الأزلىّ ، وإحاطته . . . وإرادته المطلقة ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأنعام : ٨٠]، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [هود: ٥٧]؛ ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [هود : ٩٢] ؛ ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء : ٨٥] ؛ ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنبياء : ٤] .

فكان تقديره - سبحانه وتعالى - وتدبيره وفق سننه فى خلقه ، وعلمه وإرادته ، وترتيب ذلك كله بحكمته ومشيئته ، وحيث أن الخاتم من رسله إلى الناس هو «محمد بن عبد الله» - ص - وهيمنة رسالته وشموليتها ، أخذ - جل جلاله - الميثاق على الأنبياء جميعاً أن يقروا بها ويشهدوا لها .

من هنا كانت شهادة وبشرى «آدم» - عليه السلام - ؛ ليس قولاً صادراً عنه مأثوراً ، ولكن فعلاً وعملاً وابتداءً . . . ، ورسالة إلى بنيه وذريته ؛ يتلقونها جيلاً بعد جيل ، ويبلغها السلف عن الخلف . . !

---

(١) الإمام «البغوى» .

أساسها : التوحيد، ومنهجها : الصراط المستقيم؛ حتى بلغت «نوحاً» - عليه السلام -، فلبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، يدعوهم ويحذرهم وينذرهم حتى يئس من هدايتهم، إذ كذبوه واتهموه بالجنون وقالوا : ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ [المؤمنون : ٢٥] واستمسكوا بكفرهم وجهلهم، وتنادوا فقالوا : ﴿لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح : ٢٣] .

عندئذ دعا ربه سبحانه : ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر : ١٠]؛ وثنّى فقال : ﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح : ٢٦-٢٧] .

ونجى الله تعالى «نوحاً» والذين آمنوا معه . . . ، واستقرت السفينة فوق جبال «أرارات» [1] - الجودى - ، ومن هناك تفرقت المجموعات من ذريته - عليه السلام - باتجاهات مختلفة، وكان أبرزها وأكثرها ظهوراً وأثراً ذرية ولده «سام»، الذى ينسب إليه «الساميون» وهم أصل العرب؛ فقد نزلوا فى شمال «العراق»؛ ومن ثم نزحت سلالاتهم غرباً وجنوباً، وكان منهم «عاد» و«ثمود» .

ويعتبر المؤرخون أن الفترة ما بين «آدم» و«نوح» عليهما السلام - هى مرحلة البشرية الأولى، وأن ما بعد «نوح» إلى يومنا هذا هى مرحلة الشرية الثانية، أى ما بعد الطوفان، الذى لم يبق على الأرض من الكافرين ديارا .

---

(١) فى آسيا الصغرى (الأناضول)، وإلى ذلك ذهب أكثر المفسرين والمؤرخين .

(ب) من «هود» إلى «إبراهيم» - عليهما السلام -

و«عاد» الذين استقروا فى «الأحقاف» (١) ما بين «حضرموت» إلى «عُمان»، هم «عاد» الأولى .

يقول الإمام «ابن كثير» - رحمه الله - : (٢)

(يقال لهم : عاد بن عوص بن سام بن نوح» ، كانوا عرباً يسكُنون «الأحقاف»، وهي جبال الرمل، وكانت باليمن من عمان وحضرموت بأرض مطلة على البحر يقال لها : الشحر، اسم واديهم مغيث ؛ وكانوا كثيراً ما يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام، كما قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر : ٦-٨]﴾ إ - هـ .

ومن سوء عملهم أنهم كانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان (٣)، وانحرف عن الإسلام، فبعث الله تعالى إليهم نبياً من أنفسهم هو «هود» - عليه السلام - ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف : ٦٥] ليقوِّم ويضبط خط سيرهم فى الحياة الدنيا، ويوجههم إلى الله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ

---

(١) الحقف : المعوج من الرمل، والجمع : احقاف و (أحقاف)، سميت بها إحدى سور القرآن الكريم .

(٢) (البداية و النهاية) (ج : ١) (ص : ١٣٧)

(٣) كان لهم ثلاثة أصنام هى : (صد) و(صمود) و (هرا) - ابن كثير - وفى الطبرى : (هباء) بدل (هرا) .

مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بطشتم جبارين (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أمدكم بأنعام وبنين (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عذاب يوم عظيم (١٣٥) قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إنْ هذا إلا خُلُقُ الأَوَّلِين (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء : ١٢٤ – ١٤٠] .

وكان هلاكهم ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة : ٦ – ٨] .

و«هود» – عليه السلام– هو أول الأنبياء من العرب؛ وهو أول من تكلم بالعربية .

روى «ابن حبان» فى صحيحه عن «أبى ذر» – رضى الله عنه – فى حديث طويل لرسول الله – ﷺ – ذكر فيه الأنبياء والمرسلين، وقال فيه : [«منهم أربعة من العرب : «هود» و «صالح» و «شعيب» ونبيك يا «أباذر» . . »] .

وقصة هلاك قوم «هود» – عليه السلام – طويلة . . . ، لكنها فى مقدماتها ونتائجها، ووقائعها . . ، تؤكد التواصل العقائدى، واستمرارية هذا التواصل من لدن «آدم» إلى «نوح» إلى «هود» – عليهم السلام –، فى توحيد الله عز وجل وإفراده بالعبودية، والاستقامة على منهجه – سبحانه – وصراطه المستقيم .

والحقبة الزمنية التى عاشتها «عاد»، ونبوة «هود» فيهم ودعوتهم إلى الحق، جزئية من كل، كان تمامه وختامه بالحنيفية السمحة، بمبعث سيدنا «محمد» - ﷺ - ؛ وكمال الدين الذى أراده الله تعالى لـ «بنى آدم»، سبيلاً سوياً وصراطاً مستقيماً .

فمبدأ العروبة (١) فيهم لغة وزماناً ومكاناً مؤشر بالبشارة، وكذلك نبوة «هود» - عليه السلام- داعياً إياهم إلى التوحيد ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ﴾ [هود : ٥٠] .

وحيث تنكرت «عاد» للحق وكذبت رسول الله، وأُخذت بالعذاب الشديد، بالريح العقيم ! ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات : ٤١]؛ ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة : ٧]، ونجى الله تعالى «هوداً» والذين آمنوا معه ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف : ٧٢] .

وكان سيدنا رسول الله « ﷺ » إذا ما هبت الريح استعاذ بالله تعالى، وتذكر هلاك «عاد» . . !

فقد روى «مسلم» فى صحيحه عن «عائشة - رضى الله عنها - قالت : [كان رسول الله « ﷺ » إذا عصفت الريح قال : «اللهم إنى أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها

---

(١) يقال للعرب الذين كانوا قبل «إسماعيل» -عليه السلام-: العرب العاربة، وهم قبائل كثيرة، منهم: «عاد» و«ثمود» و«جرهم» و«طسم» و«جديس» و«أميم» و«مدين» و«عملاق» و«عبيل» و«جاسم» و«قحطان» و«بنويقطن»، وغيرهم .

وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به» ؛ قالت : فإذا تخيلت [1] السماء تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا أمطرت سرى عنه . . ،

فعرفت ذلك عائشة، فسألته فقال: «لعله يا «عائشة» كما قال قوم «عاد» : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ [الأحقاف : ٢٤] [2] .

ومن «عاد» إلى «ثمود»، من «هود» إلى صالح - عليهما السلام - . . !

من شرق الجزيرة العربية إلى غربها . . !

من «الأحقاف» إلى «الحجر» .

من «بحر العرب» . . ! ومن المحيط . . . !.إلى «البحر الأحمر». . !

هذا الإلتفاف وتلك الإحاطة لهما مدلول ومغزى ومعنى، وقدراً مقدوراً، وليس عبثاً . . !

وهو تأكيد على التواصل فى استمرارية النبوات وفق المنهج الربانى، لهداية البشر إلى الحق . . . واستنقاذهم من الضلال والغواية، وتطهير الأرض من رجس الشيطان .

وهو أيضاً رسالة إلى الذين يستعلون ويتكبرون ويقولون كما قالت عاد : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً

---

(١) تخيلت : من المخيلة وهى سحابة فيها برق ورعد، فيخيل إنها ماطرة .

(٢) رواه أيضاً : الترمذى والنسائى وابن ماجة .

أوَ لَمْ يرَوْا أنَّ اللَّهَ الَّذي خَلَقَهُمْ هو سد منهم قُوَّةً. . . ﴾ [فصلت : ١٥] .

كانت «ثمود» تسكن «الحجر»، بين «الحجاز» و«تبوك»، غربى الجزيرة العربية . !

وكانت خلفاً لـ «عاد»، واستكبروا مثلهم فى الأرض بغير الحق ﴿واذْكُرُوا إذْ جعَلكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بعد عاد وبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ من سُهُولِهَا قُصُوراً وتَنْحِتُونَ الْجِبَال بيُوتا فاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ ولا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف : ٧٤] .

ذكَّرهم بهذا نبيهم «صالح» - عليه السلام -، وحذرهم وأنذرهم من قبل أن يأتيهم العذاب بغتة وهم لا يشعرون، وجاءهم ببيِّنة من ربهم . . . ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آية فذرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ولا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فيَأْخُذَكُمْ عذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود : ٦٤] .

لكنهم أبوا واستكبروا وكذبوا ﴿فَعَقَرُوهَا. . ﴾ . . . ! ﴿وأَخَذَ الَّذين ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارهم جاثمينَ (٦٧) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ألا إنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا ربَّهُمْ ألا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود : ٦٧ - ٦٨] .

ولم يتوقف أمر «ثمود» عند عقر الناقة، وعدوانهم على آية الله تعالى، بل أرادوا أيضاً قتل «صالح» - عليه السلام . . . ! لكن الله تعالى عمّى على قلوبهم، ونجى «صالحاً» والذين آمنوا معه ﴿فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يوْمئذٍ إنَّ ربَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [هود : ٦٦] .

[«ودعوة أبى «إبراهيم» . . »]

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إبراهيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة : ١٢٧ - ١٢٩] .

كانت نقلة «إبراهيم» - عليه السلام - من أرض «كنعان» إلى جبال «فاران» (١) - الحجاز - بسريته «هاجر» وولده «إسماعيل» - عليهما السلام - نقله نوعية ، ذات مضمون وأبعاد، بتدبير وتقدير من الله تعالى .

تقول «هاجر» لـ «إبراهيم» وقد تركها وولدهما في وادي «بكة» وليس معها إلا جراباً فيه تمر وسقاءً فيه ماء :

- آلله أمرك بهذا ؟؟!!

فيجيبها :

- نعم . . !

فتقول :

- الذي أمرك لا يضيعنا . . !

و«الحجاز» تتوسط - تقريباً - المسافة بين «الأحقاف» و«ديار ثمود» فهي في القلب ما بين «عاد» ديار «هود» و«ثمود» قوم «صالح» - عليهما السلام - .

---

(١) «فاران» تسمية تاريخية - جغرافية لـ «بلاد الحجاز» ؛ جاء ذكرها في «التوراة» بالنص .

وإنما سميت حجازاً لأنها سلسلة جبلية تحجز ما بين البحر (الأحمر) وقلب شبه الجزيرة العربية، «نجد» وماوالاها .

وفى وادى «مكة»، أمر الله تعالى نبيه وخليله «إبراهيم» - عليه السلام - أن يقيم القواعد من البيت (الكعبة الشريفة)، لتكون أول مسجد لعبادة الله تعالى وحده .

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج : ٢٦] فقام وولده «إسماعيل عليهما السلام - بتنفيذ أمر الله تعالى . . !

ومكان البيت العتيق (الكعبة) فى الأرض بحيال (البيت المعمور) فى السماء . . ! (١) الذى تطوف به الملائكة فى تقديس وتسبيح، وتهليل وتكبير لله عزَّ وجل (٢) ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ [المدثر : ٣١].

هنالك . . . ، وبعد تمام العمل، دعا «إبراهيم» و«إسماعيل» - عليه السلام - ربهما أن يتقبل منهما ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة : ١٢٧ - ١٢٩] .

---

(١) ثبت ذلك فى صحيحى «البخارى» و«مسلم» .

(٢) ولعل الطائفين بالبيت حجاً أو اعتماراً يتذكرون ذلك ! !

وكانت الاستجابة من الله تعالى قدراً مقدوراً فى علمه الأزلى، منذ أن كان «آدم» بين الطين ونفخة الروح . . . ، ثم على فترة من الرسل . . . ابتعث الله تعالى «محمداً» - ﷺ - رسولاً خاتماً . . ! وشاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً . . !

(ج) من «إبراهيم» إلى «عيسى» - عليهما السلام -:

توالت النبوات من بعد «إبراهيم» - عليه السلام - من ذريته، يدعون بدعوته إلى الإسلام . . .

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣٣]؛ حتى كانت نبوة «عيسى» - عليه السلام - إلى «بنى إسرائيل» ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (٤٨) وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ . . .﴾ [آل عمران: ٤٨].

﴿فاتقوا الله وأطيعون إن الله ربى وربكم فأعبدوه هذا صراط مستقيم، فلما أحسَّ عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله وأشهد بأنا مسلمون﴾ [٥٠-٥٢].

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف : ٦]

هذا ما جاء فى القرآن الكريم عن البشارة . . . !

وأما ما جاء فى الأثر الشريف فهناك أكثر من رواية، نقتصر منها على ما رواه «أبو هريرة» - رضى الله عنه - من حديث طويل -؛ يقول فيه :

(أوحى الله عز وجل إلى «عيسى ابن مريم» : ياعيسى جِدَّ فى أمرى ولا تهن، واسمع وأطع يا ابن الطاهرة البكر البتول : إنك من غير فحل، وأنا خلقتك آية للعالمين، إياى فاعبد، وعلىَّ فتوكل، خذ الكتاب بقوة ، فسر لأهل السِّريانية بلغ من بين يديك : إنى أنا الحق الحى القائم (١) الذى «لا أزول، صدقوا النبى العربى، صاحب الجمل والتاج (العمامة) والمدْرعة والنعامين والهراوة (القضيب)، الأنجل العينين، الصلت الجبين، الواضح الخدين، الجعْد الرأس، الكث اللحية، المقرون الحاجبين، الأقْنى الأنف، المفلج الثنايا، البادى العنفقة (٢) الذى كأنَّ عنقه إبريق فضة، وكأنَّ الذهب يجرى فى تراقيه، له شعرات من لبته إلى سُرَّته . . . يجرى كالقضيب ليس على بطنه ولا على صدره شعر غيره . . ، شَثْن الكف والقدم، إذا التفت التفت جميعاً، وإذا مشى كأنما ينقلع من صخر وينحدر من صبب،

---

(١) عبارة (البيهقى) فى (الدلائل): [أنا الله الحى القيوم] .

(٢) العنفقة : الشعيرات الخفيفة بين الشفة السفلى والذلن .

عرقُهُ من وجهه كاللؤلؤ، وريح المسك تنفح منه، ولم ير قبْلَهُ ولا بعده مثله، الحسن القامة، الطيب الريح، نكّاح النساء ذا النسل القليل، إنما نسله من مباركة [1] لها بيت في الجنة من قَصَب لا نصب فيه ولا صخب، تكْفله يا «عيسى» في آخر الزمان كما كفل «زكريا» أمك، له فيها فرخان مستشهدان، وله عندي منزلةٌ ليست لأحد من البشر، كلامه القرآن [2]، ودينه الإسلام، وأنا السلام، طوبى لمن أدْرك زمانه، وشهد أيامه، وسمع كلامه . . .) .

(٦) **في «التوراة» و «الإنجيل»**

«عيسى» - عليه السلام - (هو : عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى «مريم» «وروح منه، وهو آخر أنبياء الله ورسله من «بني إسرائيل»، كما أن آخر الأنبياء من بني الإنسان جميعاً «محمد» رسول الله، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ذكر اسمه في القرآن بلفظ «المسيح» تارة - وهو لقب - [3]، وبلفظ «عيسى» وهو اسمه الْعَلَميّ، وهو بالعبرية : «يسوع» أي : «المخلص»، إشارة إلى أنه سببَ تخليص كثيرين من آثامهم وضلالهم؛ و«عيسى» «ابن مريم»، تارة أخرى) [4] .

---

(١) يعني «خديجة» - رضي الله عنها -

(٢) أي : يتكلم بالقرآن الذي يوحى إليه .

(٣) المسيح بالعبرية معناها : النبي والملك، وليس المراد أنه سيصير ملكاً على بني إسرائيل بل هو إسم، كما تسمى ولدك : (سلطاناً) أو (أميراً)؛ وليس هو سلطان ولا أمير .

(٤) قصص الأنبياء لـ «عبد الوهاب النجار» (ص : ٤٤٣) .

وكلمة «إنجيل» جاء ذكرها فى القرآن الكريم اثنتى عشرة مرة؛ وتعنى الكتاب الذى أوحى به إلى «عيسى» - عليه السلام - متضمناً الهدى والنور، ودعوة «بنى إسرائيل» أن يرجعوا إلى الله ويعبدوه حق عبادته وترك ما هم عليه من ضلالة وانحراف، ويبشرهم باقتراب زمن النبى الذى يبعثه الله بشريعة جديدة كاملة خاتمة .

والكلمة فى اللغة اليونانية مركبة من كلمتين : (إيف) و (نجيل) [إيفا نجيل] ؛ و «إيف» معناها : (جيد - حسن - صلاح - خير - صدق)، أما «نجيل» فمعناها : (الإخبار) وعلى هذا يكون تعريب الكلمة : الإخبار بالخير، أو : الخبر الحسن؛ وكلتاهما لا تعدو : (البشارة) . ولكن أين هذا الإنجيل !؟؟

والذى يوجد الآن أربعة كتب تسمى باسم من كتبها وتنسب إليه : (إنجيل متى، إنجيل مرقص ، إنجيل لوقا ، إنجيل يوحنا) وهى التى أقرتها الكنيسة واعترفت بها، وهى عبارة عن قصة حياة «عيسى» - عليه السلام - كتبها هؤلاء - وغيرهم (١) بعد رفْعه، متضمنة بعض أقواله؛ منهم من لم ير «المسيح» ولا عاشره . . ! (لوَقَا) .

وأهم ما يلاحظ عليها : انقطاع السند، وعدم العلم التام بالمؤلف الحقيقى - أو المترجم - ومبلغ أمانته على الدين وحرصه على الصدق، وما بينها من الاختلاف الحقيقى المفضى إلى أن أحد الأقوال صادق وماعداه كاذب !!!

---

(١) زادت الأناجيل المسماة باسم أصحابها على المائة؛ و«إنجيل متى» أقدمها، وقد كتب سنة (٣٩) للميلاد؛ وكان باللسان العبرى، وقد نفد، والموجود الآن ترجمته، ولا يعرف المترجم-

والذى يهمنا – رغم المآخذ عليها – هو تضمنها : البشارة . .

البشارة باقتراب ملكوت السماوات، والمراد بها الشريعة الإلهية التى يرسل الله تعالى بها النبى الأمى المذكور فى «التوراة» [الآية ١٥ – الإصحاح ١٨ – سفر التثنية]؛ الذى وعد الله بنى إسرائيل على لسان «موسى» – عليه السلام – أن يرسله من بين إخوته، ويجعل كلامه فى قمه ويخبرهم بكل الذى يوصيه الله به .

وقد بشر اليهود به أنبياء كثيرون : «داود» فى المزمور الخامس والأربعين والتاسع والأربعين بعد المائة، و«أشعيا»» فى الإصحاحات: ٨، ٩، ٢٦، ٣٥، ٤٢، ٤٣، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٤، ٥٥، ٦٠، ٦٥ . . . . ؛ وغيرهم . . وغيرهم .

وفى «الأناجيل» المذكورة كان «المسيح» يعبر عن المبشر به بلفظ : «النبىّ» – و«المسيح» عندهم ليس نبى مرسل بل هو إلاه، أو ابن الإله (تعالى الله عن ذلك الإفتراء علوّ كبيراً !!!)

أو يعبر عنه بلفظ «مَسّيا» . . !

أو بلفظ «فارقليط»، وهذا اللفظ هو تعريب كلمة «بيريكليتوس» اليونانية، ومعناها : الذى له حمد كثير، أى «أحمد» . . !

يقول الشيخ «عبد الوهاب النجار» – رحمه الله – فى كتابه : «قصص الأنبياء» (ص : ٤٧٣ – ٤٧٤) : (كما عبر عنه بعض الكتب بلفظ : «إيلياء»، واليهود يظنون أن «إيلياء» يأتى إليهم، ولكن إذا عرفوا أن «إيلياء» جملها [1] : (٥٣)، كجُمل لفظ : «أحمد»، زال الإشكال، وتبيَّن المراد) .

(١) أى: مجموع أعداد أرقام أحرفها .

(٧) هواتف الجان

باب أفرده الإمام «ابن كثير» - رحمه الله - في الحديث عن الإرهاصات التي أنذرت وبشرت بنبوة سيدنا رسول الله [١] - ﷺ - ونحن نقتصر منه على ما يلي :

قال الحافظ «أبو يعلى الموصلي» . . . عن «محمد كعب القرظي» قال : بينما «عمر بن الخطاب» - رضي الله عنه - ذات يوم جالس إذ مر به رجل فقيل : يا أمير المؤمنين أتعرف هذا المار؟ قال : ومن هذا؟ قالوا : هذا «سواد بن قارب» الذي أتاه رئيُّه بظهور رسول الله « ﷺ» . . !

فأرسل إليه «عمر»، فقال له : أنت «سواد بن قارب»؟ قال : نعم . . ، قال : فأنت على ما كنت عليه من كهانتك؟ فغضب - أي : سواد - وقال : ما استقبلني بهذا أحد منذ أسلمت يا أمير المؤمنين !! فقال «عمر» : يا سبحان الله . . . ، ما كنا عليه من الشرك أعظم مما كنت عليه من كهانتك . . ، فأخبرني ما أنبأك رئيك بظهور رسول الله « ﷺ » .

قال : نعم . . . يا أمير المؤمنين . . . بينما أن ذات ليلة بين القائم واليقظان إذ أتاني رئيِّي فضربني برجله وقال : قُمْ يا «سواد بن قارب»، واسمع مقالتي، واعْقِل إن كنت تَعْقل إنه قد بعث رسول من «لؤى بن غالب» يدعو إلى الله وعبادته ، ثم أنشأ يقول :

---

(١) (البداية والنهاية) من: (ص: ٤٠٥ إلى ٤٣٦، [ج: ٢] والجان والجن بمعنى واحد، سميت بذلك لأنها تتقى ولا ترى:

عَجِبْتُ للْجِنِّ وتطْلابهـا وَشَدِّها العيش بأَقْتابها

تَهْوى إلى «مكة» تَبْغى الهُدى ما صادقُ الجن كَكَذّابها

فارحل إلى الصفوة من هاشم ليس قُدَّامها كأذنابها

فقلت : دعنى أنام فإنى أمسيت ناعساً .

فلما كانت الليلة الثانية أتانى فضربنى برجله وقال : قم يا «سواد بن قارب» واستمع مقالتى ، واعتقل إن كنت نعْقل ، إنه بعث رسول من «لُؤىٍّ بن غالب» يدعو إلى الله وعبادته ، ثم أنشأ يقول :

عَجِبْتُ للْجِنِّ وتَحْيارهـا وَشَدِّها العيس بأكوارها

تهوَى إلىَ «مَكة» تبغى الهدى ما مؤمن الجن ككفارها

فارحل إلى الصفوة من هاشم بين روابيها وأحجارها

فقلت : دعنى أنام ، فإنى أمسيت ناعساً

فلما كانت الليلة الثالثة أتانى فضربنى برجله وقال : قم يا «سواد ابن قارب» ، فاسمع مقالتى ، واعقل إن كنت تعقل ، إنه قد بعث رسول من «لؤى بن غالب» يدعو إلى الله ، ثم أنشأ يقول :

عجبت للجن وتحساسها وشدها العيش باحلاسها

تهوى إلى «مكة» تبغى الهدى ما خَيِّرُ الجن كأنجاسها

فارْحَلْ إلى الصفوة من هاشم واسْمُ بعينيك إلى راسها (١)

فقمت وقلت : قد امتحن الله قلبى ، فرحلت ناقتى ، ثم أتيت المدينة (مكة) فإذا رسول الله « ﷺ » فى أصحابه ، فد نوت فقلت : اسمع مقالتى يا رسول الله . . . قال : هات . . !

---

(١) العيس : الابل . والقتب : البردعة ، والحلس : ما يُفْرشُ فوق ظهر الدابة تحت البردعة .

فأنشأت أقول :

أتانى نجيِّى بعد هدء ورقدة ولم يك فيما قد تلون بكاذب
ثلاث ليالٍ قوله كل ليلة : أتاك رسول من «لؤىٍّ بن غالب»
فشمرت عن ذيلى الإزار ووسطت بى الدعلب الوجناء غير السباسب
فاشهد أن الله لا شىء غيره وأنك مأمون على كل غالب
وأنك أدنى المرسلين وسيلة إلى الله يا ابن الأكرمين الأطايب
فمرنا بما يأتيك يا خير من مشى وإن كان فيما جاء شيب الذوائب
وكن لى شفيعاً يوم لا ذو شفاعة سواك بمُغْنٍ عن «سواد بن قارب»

ففرح رسول الله « ﷺ » وأصحابه بمقالتى فرحاً شديداً، حتى رئى الفرح فى وجوههم. . ! فوثب إليه «عمر بن الخطاب» فالتزمه، وقال: قد كنت أشتهى أن أسمع هذا الحديث منك . . ، فهل يأتيك رئيُّك اليوم؟

فقال : أما منذ قرأت القرآن فلا ، ونعم العوض كتاب الله من الجن) .

(وقال «أبو نعيم» فى كتاب «دلائل النبوة» . . . عن «عبد الله العمانى» قال : كان منا رجل يقال له «مازن بن العضوب» (١) يسدن صنماً بقرية يقال لها : «سمايا» (٢) فى «عمان»؛ كانت تعظمه «بنو الصامت» و«بنو حطامة» و«مهرة» وهم أخوال «مازن» ، أمه : «زينب بنت عبد الله بن ربيعة بن خويص «أحد بنى عمران» .

(١) قال البيهقى: «مازن الغضوبة – ذكره «ابن عبد البر» وابن حجر» فى الصحابة .
(٢) لعلها «سمال» كما جاء فى «معجم البلدان» .

قال «مازن» فعثرنا يوماً عند الصنم عتيرة (ذبيحة)، فسمعت صوتاً من الصنم يقول : يا «مازن» اسمع تسر ، ظهر خير وبطن شر ، بعث نبى من «مُضَر»، بدين الله الأكبر، فدع نحيتاً من حجر، تسلم من حرسقر، قال : ففزعت فزعاً شديداً .

ثم عثرنا بعد أيام عتيرة أخرى، فسمعت صوتاً من الصنم يقول : أقبل إلىَّ أقبل ، تسمع مالا تجهل، هذا نبى مرسل، جاء بحق منزل، فآمن به كى تعدل عن حر نار تشعل وقودها الجندل!!

قال «مازن» : فقلت إن هذا لَعَجب، وإن هذا لخير يرا د بى .

وقدم علينا رجل من الحجاز فقلت : ما الخبر وراءك؟ فقال : ظهر رجل يقال له «أحمد»، يقول لمَنْ أتاه : أجيبوا داعى الله . . ! فقلت : هذا نبأ ما سمعت . . ! فثرت إلى الصنم فكسرته جذاذاً، وركبت راحلتى حتى قدمت على رسول الله « ص » ، فشرح الله صدرى للإسلام فأسلمت ، وقلت :

كسَّرت باجر أجذاذاً وكان لنا ربًّا نطيف به ضلاً بتضـــلال

فالهاشمى هدانا من ضلالتنا ولم يكن دينه منى على بـال

يا راكباً بلغن عمراً وإخوتها (١) إنى لمن قال ربى «باجر» قالى

فقلت : يا رسول الله إنى أمرؤ مولع بالطرب وبالهلوك من النساء وشرب الخمر، وألحت علينا السنون فأذهبن الأموال وأهزلن السرارى - ويقال : الذرارى - وليس لى ولد، فادع الله أن يذهب

---

(١) يعنى : « تغمرو الصامت» واخوتها «حطامة»؛ قال البيهقى فى الدلائل : [يعنى بـ «عرو» وإخوته : بنى حطامة»].

عنى ما أجد ويأتينا بالحيا [1]، ويهب لى ولداً، فقال النبى « ﷺ » : [«اللهم أبدله بالطرب قراءة القرآن، وبالحرام الحلال، وبالإثم الطهر عفة، وآته بالحيا، وهب له ولداً»] .

قال : فذهب عنى ما أجد، وأخصبت «عمان»، وتزوجت أربع حرائر، وحفظت شطر القرآن، ووهب لى «حيان بن مازن» .

وأنشأ يقول :

إليك رسـول اللـه خبـت مطيتى
تجوب الفيافى من «عُمانَ» إلى العرج
لتشفع لى يا خير من وطىء الحصـى
فيغفـر لى ربى فأ رجع بالفلـج
إلى معشر خالفت فى اللـه دينهـم
فلا رأيُهُـم رأيى ولا شرحهم شرحـى
وكنت امرءاً بالخمـر والقهـر مولعـاً
شبابى حتى آذن الجسـم بالنهـج
فبدلنى بالخمـر خوفـاً وخشيـة
وبالقهر إحصان فحصن لى فرجـى
فأصبحت همى فى الجهـاد ونيتـى
فللـه ما صومـى وللـه ما حجـى

---

(١) الحيا : المطر والخصب .

فلما أتيت قومى أنبونى وشتمونى، وأقروا شاعراً لهم فهجانى، فقلت : إن رددت عليه فإنما أهجونَفْسى، فرحلت عنهم، فأتتنى منهم زلفة عظيمة - وكنت القيِّم بأمورهم - فقالوا : يا ابن عم عبْنا عليك أمْراً وكرهنا ذلك، فإن أبيت ذلك فارجعْ وقم بأمورنا وشأنك وما تدين به؛

فرجعت معهم، وقلت :

لبعضكم عندنا سر مذاقته
وبغضنا عندكم يا قومنا لبن
لا يفطن الدهر إن بثت معائبكم
وكلكم حين يثنى عيبنا فطن
شاعرنا مفحم عنكم وشاعرنا
فى حَدْبنا مبلغ فى شتمنا لَسِن
ما فى القلوب عليكم فاعلموا وغر
وفى قلوبكم البغضاء والإحَن

فهداهم الله بعد إلى الإسلام جميعاً.

وقال «الواقدى» - فى رواية عن «عثمان بن عفان» رضى الله عنه : (خرجنا فى عير إلى الشام - قبل أن يبعث رسول الله - ﷺ - فلما كنا بأفواه الشام، وبها كاهنة، فَتَعرَّضَتْنا فقالت : أتانى صاحبى فوقف على بابى، فقلت : ألا تدخل؟! قال : لا سبيل إلى ذلك... خرج «أحمد» وجاء أمر لا يطاق..!

ثم انصرفت فرجعت إلى «مكة» فوجدت رسول الله « ﷺ » قد خرج بـ «مكة» يدعو إلى الله عز وجل) (١) .

وقال الواقدى : حدثنى «محمد بن عبد الله الزهرى» قال : (كان الوحى يسمع . . . ، فلما كان الاسلام منعوا، وكانت امرأة من «بنى أسد» يقال لها «سعيرة» لها تابع من الجن، فلما رأى الوحى لا يُستطاع أتاها فدخل فى صدرها، فضج فى صدرها، فذهب عقلها، فجعل يقول من صدرها : وضع العناق ومنع الرفاق وجاء أمر لا يطاق، و«أحمد» حرَّم الزنى) .

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧) إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر : ١٨] .

﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (٧) وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾

[الجن : ٤ - ٩]

وقال الحافظ «أبو بكر الخرائطى» - فى رواية عن «مرداس بن قيس السدوسى» قال :

---

(١) أخرجه «أبو نعيم» فى الدلائل (ص : ٢٩) .

وحضرت النبى « ﷺ » – وقد ذكرت عنده الكهانة وما كان من تغييرها عند مخرجه – فقلت : يا رسول الله قد كان عندنا فى ذلك شىء، أخبرك أن جارية منا يقال لها «الخلصة» لم يعلم عليها إلا خيراً، إذ جاءتنا فقالت : يا معشر «دوس» . . . العجب العجب لما أصابنى، هل علمتم إلا خيراً؟ قلنا : وماذاك؟ قالت : إنى لفى غنمى إذ غشيتنى ظلمة، ووجدت كحِسِّ الرجل مع المرأة، فقد خشيت أن أكون قد حبلت! ! حتى إذا دنت ولادتها وضعت غلاماً أغضف [1]، له أذنان كأذنى الكلب، فمكث فينا، حتى إنه ليلعب مع الغلمان إذ وثب وثبة وألقى إزاره وصاح بأعلى صوته وجعل يقول : يا ويله . . يا ويله، يا عولة . . . يا عولة . . .، يا ويل غنم، يا ويل فهم، من قابس السنار، الخيل والله وراء العقبة، فيهن فتيان حسان نجبة . . !

فركبنا، وأخذنا للأداة، وقلنا : ويلك ما ترى؟؟ فقال : هل من جارية طامث؟ فقلت : ومن لنا بها ؟! فقال شيخ منا : هى والله عندى، عفيفة الأم . . .، فقلنا : فَعَجِّلْها . . .، فأتى بالجارية وطلع الجبل، وقال للجارية : اطرحى ثوبك واخرجى فى وجوههم، وقال للقوم : اتبعوا أثرها . . .، وقال لرجل منا – يقال له «أحمد بن حايس» – : يا «أحمد بن حايس» عليك أول فارس . . !

فحمل «أحمد» فطعن أول فارس فصرعه، وانهزموا فَغَنِمْناهم؛

---

(١) الأغضف : المسترخى الاذنين .

فابتنينا عليهم بيتاً وسميناه «ذا الخلصة»[1]، وكان لا يقول لنا شيئاً إلا كان كما يقول، حتى إذا كان مبعثك يا رسول الله، قال لنا يوماً : يا معشر «دوس» نزلت بنو الحارث بن كعب» . . ! فركبنا . . ، فقال لنا : آكدسوا الخيل كدساً[2]، احشوا القوم رمساً، انفوهم غدية واشربوا الخمر عشية .

فلقيناهم . . فهزمونا وغلبونا، فرجعنا إليه فقلنا : ما حالك؟ وما الذى صنعْت بنا . . !؟ فنظرنا إليه وقد احمرت عيناه وانتصبت أذناه وانبرم غضبانا ، حتى كاد أن ينفطر، وقام . . ، فركبنا واغتفرنا هذه له، ومكثنا بعد ذلك حيناً، ثم دعانا فقال : هل لكم فى غزوة تهب لكم عزاً وتجعل لكم حرزاً، ويكون فى أيديكم كنزاً !!!؟ فقلنا : ما أحوجنا إلى ذلك . . ، فقال : اركبوا . . ، فركبنا، فقلنا : ما نقول؟ فقال «بنو الحارث بن مسلمة» . . . ، ثم قال : قفوا . . . ، فوقفنا، ثم قال : عليكم بـ «فهم» . . ، ثم قال : ليس لكم فيهم دم، عليكم بـ «مضرهم» . . . أرباب خيل ونعم . . . ، ثم قال : لا، رهط «دزيد بن الصمة» قليل العدد وفى الذمة، ثم قال : لا . . . ، ولكن عليكم بـ «كعب بن ربيعة» وأسكنوها ضيعة «عامر بن صعصعة» فليكن بهم الوقيعة . . . ، فلقيناهم فهزمونا وفضحونا، فرجعنا وقلنا : ويلك ماذا تصنع بنا !؟ قال : ما أدرى . . كذبنى الذى كان يصدقنى ،

---

(١) كانت ذا الخلصة «صنماً لـ «دوس»، وأرسل رسول الله « ﷺ » سرية بقيادة «خالد ابن الوليد» بعد فتح «مكة» فهدمها .

(٢) الكدس : الطعام .

اسجنونى فى بيتى ثلاثاً، ثم ائتونى . . . ، ففعلنا به ذلك، ثم أتيناه بعد ثالثة ففتحنا عنه فإذا هو كأنَّه حجرة نار، فقال : يا معشر دوس حرست السماء . . . خرج خير الأنبياء . . . ، قلنا : أين؟ قال : بـ «مكة»، وأنا ميت فادْفنونى فى رأس جبل، فإنى سوف اضطرم ناراً، وإن تركتمونى كنت عَليكم عاراً، فإذا رأيتم اضطرامى وتلهبى فاقذفونى بثلاثة أحجار، ثم قولوا مع كل حجر : باسْمك اللهم، فإنى أهدى وأطفى . . !

وإنه مات فاشتعل ناراً ، ففعلنا به ما أمر، وقد قذفناه بثلاثة أحجار، نقول مع كل حجر : باسمك اللهم، فخمد وطفىء، وأقمْنا حتى قدم علينا الحاج فأخبرونا بمبعثك يا رسول الله، إهـ[(١)] .

وروى «الواقدى» . . . (عن «سفيان الهدلى» قال : خرجنا فى عير لنا إلى الشام، فلما كنا بين «الزرقا» و«معان» [(٢)]، قد عَرَّسْنا [(٣)] من الليل، فإذا بفارس يقول - وهو بين السماء والأرض : أيها النيام هبوا، فليس هذا بحين رقاد، «خرج «أحمد» فطردت الجن كل مطرد . . . ، ففزعت، ونحن رفقة حزورة [(٤)]، كلهم قد سمع بهذا، فرجعنا إلى أهلنا، فإذا هم يذكرون اختلافاً بـ «مكة» بين «قريش» فى نبى قد خرج منهم من «بنى عبد المطلب» إسمه : «أحمد») [(٥)] .

---

(١) قال الحافظ الإمام «ابن كثير» فى هذا الحديث : غريب جداً .

(٢) فى «البلقاء» الأردن .   (٣) عرَّس بالمكان : أقام به فى آخر الليل للراحة .

(٤) الحزورة : الرجل القوى .

(٥) ذكره «أبو نعيم» فى «الدلائل» .

وقال «الخرائطى» : حدثنا «عبد الله بن محمد البلوى» - بمصر ، حدثنا عمارة بن زيد» ، حدثنى «عبد الله بن العلاء» ، حدثنى «يحيى ابن عروة» عن أبيه :

(أن نفراً من «قريش» منهم : «ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قُصَىٍّ» ، و«زيد بن عمرو بن نفيل» و«عبيد الله بن جَحْش بن رئاب» و«عثمان بن الحويرث» كانوا عند صنم لهم يجتمعون إليه ، قد اتخذوا ذلك اليوم من كل سنة عيداً ، كانوا يعظمونه وينحرون له الجزور ، ثم يأكلون ويشربون الخمر ، ويعكفون عليه ؛ قد خلوا عليه فى الليل فرأوه مكبوباً على وجهه ، فأنكروا ذلك ، فأخذوه فردوه إلى حاله ، فلم يلبث أن انقلب انقلاباً عنيفاً ، فأخذوه فردوه إلى حاله ، فانقلب الثالثة . . ، فلما رأوا ذلك اغتموا له وأعظموا ذلك ، فقال «عثمان بن الحويرث» : ماله قد أكثر التَّنكُّس !!؟ إن هذا إلا لأمر قد حدث ؛ وذلك فى الليلة التى ولد فيها رسول الله « ﷺ » . . !

فجعل «عثمان» يقول :

أيا صنم العيد الذى صف حولـه
صناديد وفد من بعيد ومـن قـرب
تنكست مغلوباً فما ذاك؟ قل لنـا
أذاك سفيه ، أم تنكست للعتـب
فإن كان من ذنب أتينـا فإننـا
نبوء بإقرار ونلوى عن الذنـب
وإن كنت مغلوباً ونكست صاغراً
فما أنت بالأوثان بالسيـد الـرب

فأخذوا الصنم فردوه إلى حاله، فلما استوى هتف بهم هاتف من الصنم، بصوت جهير . . ، وهو يقول :

تـــردى لمولـــود أنـــارت بنـــــــوره
جميع فجاج الأرض . . . فى الشرق والغرب
وخـــرت له الأوثـــان طراً وأرعـــدت
قلـوب ملـوك الأرض طـراً مـــن الرعـب
ونار جميـــع الفرس باخـــت وأظلمـــت
وقد بات شاه الفـرس فى أعظـم الكـــرب
صُدَّتْ عـــن الكهـــان بالغـــيب جنُّهـــا
فلا مخبـــر عنهـــم بحـــق ولا كَـذب
فيا لقصـــى (١) ارجعـوا عـــن ضلالكـم
وهبـــو إلى الإســـلام والمنـــزل الرحـــب

فلما سمعوا ذلك خلصوا نجيا، فقال بعضم لبعض : تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض، فقالوا : أجل فقال لهم «ورقة بن نوفل» : تعلمون والله ما قومكم على دين، ولقد أخطأوا الحجة وتركوا دين «إبراهيم» . . ، حجر تطيفون به لا يسمع ولا يبصر، ولا ينفع ولا يضر . . !! يا قوم التمسوا لأنفسكم الدين، فإنكم والله ما أنتم على شيء .

فخرجوا عند ذلك يضربون فى الأرض، ويسألون عن الحنيفية - دين «إبراهيم»، عليه السلام فأما «ورقة بن نوفل» فتنصر وقرأ الكتب، حتى علم علماً، وأما «عثمان بن الحويرث» فسار إلى قيصر

---

(١) يعنى : يا آل قصى .

فتنصر، وحسنت منزلته عنده؛ وأما «زيد بن عمرو بن نفيل» فأراد الخروج فحبس [1]، ثم إنه خرج بعد ذلك فضرب فى الأرض حتى بلغ «الرقة» [2] من أرض الجزيرة، فلقى بها راهباً عالماً فأخبره بالذى يطلب، فقال له الرهب: إنك لتطلب ديناً ما تجد من يحملك عليه، ولكن قد أظلك زمان نبى يخرج من بلدك، يبعث بدين الحنيفية . . !

فلما قال له ذلك رجع يريد «مكة»، فغارت عليه «لخم» فقتلوه.

وأما «عبيد الله بن جحش» فأقام بـ«مكة» حتى بعث النبى «ﷺ»، ثم خرج مع من خرج إلى أرض الحبشة، فلما صار بها تنصر وفارق الإسلام، فكان بها حتى هلك هنالك نصرانياً) ا-هـ .

وقال «الخرائطى» . . . عن «العبّاس بن مرداس» - رضى الله عنه- : (أنه كان يعر [3] فى لقاح له نصف النهار، إذ طلعت عليه نعامة بيضاء عليها راكب، عليه ثياب بيض مثل اللَّبن، فقال: يا «عباس بن مرداس» ألم تر أن السماء قد كفَّتْ أحراسها، وأن الحرب تجرعت أنفاسها، وأن الخيل وضعت أحلاسها، وأن الذى نزل بالبر والتقوى - يوم الإثنين ليلة الثلاثاء - صاحب الناقة القصوا . . !

قال: فرجعت مرعوباً قد راعنى ما رأيت وسمعت، حتى جئت وثناً لنا يدعى «الضماد»، وكنا نعبده ونكلِّم من جوفه، فكنست ما حوله ثم تمسَّحْت به وقبلته، فإذا صائح من جوفه يقول:

---

(١) حبسه عمه «الخطاب».

(٢) على الحدود الشامية العراقية.

(٣) يعر: يتغوط (يقضى حاجة).

قل للقبائل من «سليم» كلهـا   هلك الضماد وفاز أهل المسجـد
هلك الضماد وكان يعبد مرة   قبل الصلاة مع النبى «محمـد»
إذ الذى ورث النبوة والهـدى .   بعد «ابن مريم» من قريش مهتد

فـخـرجت مرعـوباً حتى أتيت قومى فقـصـصت عليـهم القـصـة وأخبرتهم الخبر، وخرجت فى ثلاثمائة من قومى «بنى حارثة» إلى رسـول الله « ﷺ » - وهو بالمدينة - فـدخلنا المسـجد، فلمـا رآنى رسول الله «قال لى : [«يا «عباس» كيف كان إسلامك»؟] فقصصت عليه القصة . . . ، فسر بذلك، وأسلمت أنا وقومى) [(١)] .

قال «الخرائطى» [(٢)] . . . رواية عن «عبد الله بن محمود» من آل «محمد بن مسلمة»، قال :

(بلغنى أن رجـالاً من «خـثـعم» كـانوا يقـولـون : إن مما دعـانا إلى الإسـلام أنا كنا قوماً نعبد الأوثان، فبينا نحن ذات يوم عند وثن لنا إذ أقبل نفر يتقاضون إليه، يرجون الفرج من عنده لشيء شجر بينهم، إذ هتف بهم هاتف يقول :

يا أيها النـاس ذوو الأجـسـام   من بين أشياخ إلى غـــــلامِ
ما أنتم وطائش الأحـــــلام   ومسند الحكم إلى الأصنـــامِ

---

(١) «الهيثمى» فى مجمع الزوائد [٨/ ٤٧]، ورواه الطبرانى .

(٢) الخرائطى : محمد بن جعفر بن محمد بن سهل (أبو بكر الخرائطى) السامرى - فاضل من حفاظ الحديث - من أهل السامرة بـ«فلسطين»، ووفاته فى مدينة «يافا» من كتبه : [مكارم الأخلاق] -[مساوىء الأخلاق] [اعتدال القلوب] [هواتف الجان وعجائب ما يحكى عن الكهان] [فضيلة الشكر] (٢٤٠ - ٣٢٧) هـ . (الأعلام لـ«الزركلى» (ج :٦) (ص : ٢٩٧) .

أكلمكم فى حبرة ونيـــــام أم لا ترون ما الذى أمامـــــى
من ساطع يجلو دجى الظلام قد لاح للناظر من «تهـــام»
ذاك نـبى سيـــد الأنـــام قد جاء بعد الكفر بالاســلام
أكرمه الرحمـــن مــن إمـــام ومن رســول صادق الكـلام
أعدل ذى حكم من الأحكام يأمر بالصـــلاة وبالصيـــام
والبر والصلات بالأرحـــام ويزجر الناس عن الآثـــام
والرجس والأوثـان والحـرام من «هاشم» فى ذروة السنام
مُسْتَعْلناً فى البلد الحرام

قال : فلما سمعنا ذلك تفرقنا عنه وأتينا النبى « ﷺ » فأسلمنا (أبو نعيم فى «الدلائل» ص : ٣٣) .

وقال «الخرائطى» . . رواية عن «سعيد بن جبير» رضى الله عنه :

(أن رجلاً من «بنى تميم» يقال له : «رافع بن عميرة» - وكان أهدى الناس للطريق، وأسراهم بليل، وأهجمهم على هول، وكانت العرب تُسَمِّيه لذلك : «دعموص العرب» (١) لهدايته وجراوته على السيرِ -، فذكر عن بدء إسلامه قال : إنى لأسير برمْل عالج ذات ليلة إذ غلبنى النوم، فنزلت عن راحلتى وأخذتها ونوسدت ذراعهاونمت، وقد تعوذت قبل نومى فقلت : أعوذ بعظيم هذا الوادى (٢) من الجن من أن أوذى أو أهاج . . ! فرأيت فى منامى رجلاً شاباً يرصد ناقتى وبيده حربة يريد أن يضعها فى نحرها . . ، فانتبهت لذلك فزعاً

(١) الدعموص :
(٢) قول أهل الجاهلية .

فنظرت يميناً وشمالاً فلم أر شيئاً، فقلت هذا حلم . . ، ثم عدت فغفوت فرأيت فى منامى مثل رؤياى الأولى، فانتبهت فدرت حول ناقتى فلم أر شيئاً، وإذا ناقتى ترعب، ثم غفوت فرأيت مثل ذلك، فانتبهت فرأيت ناقتى تضطرب، والتفت فإذا أنا برجل شاب كالذى رأيته فى المنام بيده حربة، ورجل شيخ ممسك بيده يردُّهُ عنها، وهو يقول :

يا مالك بن مهلهل بن دثـــــار   مهلاً فـدىً لك مئزرى وإزارى
عن ناقة الإنسى لا تعرض لهـا   وآختر بها ما شئت من أثـوارى
ولقد بدا لى منك ما لم أحتسب   ألا رعيت قرابــتى وذِ مــارى
تسمو إليه بحربة مسمومـــــة   تباً لفعلـك يا أبـا الغفـــــار
لولا الحياء وأن أهلك جـــيرة   لعلمت ما كشَّفت من أخبـارى

فأجابه الشاب :

أأردت أن تعلو وتخفض ذكرنا   فى غـير مزريـــة أبا العيـــزار
ما كان فيهم سيد فيما مضـــى   إن الخيار هـم بنو الأخيـــــار
فاقصـد لغضبك يا متكبر إنمــا   كان المجير مهلهل بـن دثـــار

فبينما هما يتنازعان إذ طلعت ثلاثة أثوار من الوحش، فقال الشيخ للفتى : قُمْ يا ابن أخت فخـذ أيها شئت فداء لناقة جـارى الإنسى، فقام الفتى فأخذ منها ثوراً وانصرف . . ، ثم التفت إلى الشيخ فقال : يا هذا إذا نزلت وادياً من الأودية فخفت هوله فقل : أعوذ بالله رب «محـمـد» من هول هذا الوادى ولا تعـذ بأحـد من الجن فـقـد بطل

أمرها . . !، فقلت له : ومن «محمد» هذا؟ قال : نبى عربى لا شرقى ولا غربى، بعث يوم الاثنين . . ، قلت: وأين مسكنه؟ قال «يثرب» ذات النخل . . !

فركبت راحلتى حين برق لى الصبح، وجددت السير حتى تقحمت «المدينة»، فرآنى رسول الله « ﷺ » ، فحدثنى بحديثى قبل أن أذكر له فيه شيئاً، ودعا نى إلى الإسلام فأسلمت .

قال «سعيد بن جيبر» : وكنا نرى أنه هو الذى أنزل الله فيه ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ [الجن: ٦] ! - هـ

وقال «أبو نعيم» فى «الدلائل» رواية عن «تميم الدارى» - رضى الله عنه - قال :

﴿كنت بالشام حين بعث النبى « ﷺ »، فخرجت لبعض حاجتى، فأدركنى الليل، فقلت : أنا فى جوار عظيم هذا الوادى الليلة .

فلما أخذت مضجعى إذا أنا بمناد ينادى - لا أراه - : عُذْ بالله . . . فإن الجن لا تجير أحداً على الله . . . ، فقلت : أَيْم الله تقول!!؟ فقال : قد خرج رسول الأميين، رسول الله، وصلينا خلفه بالحجون (١) فأسلمنا واتبعناه، وذهب كيد الجن، ورميت بالشهب . . ، فانطلق إلى «محمد» رسول رب العالمين، فأسلم .

---

(١) ضاحية بـ«مكة» .

فلما أصبحت ذهبت إلى «دير أيوب»(١)، فسألت راهباً، وأخبرته الخبر، فقال الراهب: قد صدقوك، يخرج من الحرم، ومهاجره إلى الحرم، وهو خير الأنبياء، فلا تسبق إليه؛ فتكلفت الشخوص حتى جئت رسول الله « ﷺ » فأسلمت).

وروى «أبو نعيم» قصة إسلام «عمرو بن مُرَّة الجهنى»، قال عمرو:

(خرجت حاجاً في جماعة في قومي، في الجاهلية، فرأيت في المنام وأنا بـ «مكة» نوراً ساطعاً من «الكعبة» حتى أضاء في جبل «يثرب» وأشعر «جهينة»؛ فسمعت صوتاً في النور وهو يقول:

- انقشعت الظلماء، وسطع الضياء، وبعث خاتم الأنبياء.

ثم أضاء إضاءة أخرى، حتى نظرت إلى قصور «الحيرة» وأبيض المدائن، سمعت صوتاً في النور وهو يقول:

- ظهر الإسلام، وكسرت الأصنام، ووصلت الأرحام.

فانتبهت فزعاً، فقلت لقومي: والله ليحدثن في هذا الحي من قريش حدث . . ، وأخبرتهم بما رأيت فلما انتهينا إلى بلادنا جاءنا رجل فأخبرنا أن رجلاً يقال له: «أحمد»، قد بعث، فأتيته . . ، فأخبرته بما رأيت، فقال: [«يا عمرو بن مرة» إني المرسل إلى العباد كافة أدعوهم إلى الإسلام، وآمرهم بحقن الدماء وصلة الأرحام، وعبادة الله وحده، ورفض الأصنام، وحج البيت، وصيام شهر من

---

(١) قرية من قرى «حوران» - جنوبي «دمشق».

اثنى عشر شهراً، وهو شهر رمضان، فمن أجاب فله الجنة، ومن عصى فله النار . . ، فآمن يا «عمرو بن مرة» يؤمنك الدين نار جهنم . . . »] فقلت : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، آمنت بكل ما جئت به من حلال وحرام، وإن أرغم ذلك كثيراً من الأقوام، ثم أنشدته أبياتاً قلتها حين سمعت به - وكان لنا صنم، كان أبى سادنا له، فقمت إليه فكسرته، ثم لحقت النبى « ﷺ » - وأنا أقول :

شهدت بأن الله حق وأننى
لآلهة الأحجار أول تارك
فشمرت عن ساقى إزار مهاجر
إليك أدب الغور بعد الدكادك
لأصحب خير الناس نفساً ووالداً
رسول مليك الناس فوق الحبائك (١)

فقال النبى « ﷺ » : [«مرحباً بك يا «عمرو بن مرة» . . . »]فقلت : يا رسول الله بأبى أنت وأمى ابعث بى إلى قومى، لعل الله أن يمن لى عليهم كما من بك علىَّ . . . ، فبعثنى إليهم وقال : [«عليك بالقول السديد، ولا تكن فظاً ولا متكبراً ولا حسوداً»] .

فأتيت قومى فقلت لهم : يا بنى «رفاعة» ثم يا «بنى جهينة» إنى رسول من رسول الله إليكم أدعوكم إلى الجنة، وأحذركم النار، وآمركم بحقن الدماء، وصلة الأرحام، وعبادة الله، ورفض

---

(١) الحبائك : يعنى بها السماوات .

الأصنام، وحج البيت، وصيام شهر رمضان، شهر من اثنى عشر شهراً، فمن أجاب فله الجنة، ومن عصى فله النار، يا معشر «جهينه» إن الله – وله الحمد – جعلكم خيار من أنتم منه، وبغض إليكم فى جاهليتكم ما حبب إلى غيركم من الرفث (لأنهم كانوا يجمعون بين الأختين، ويخلف الرجل منهم على امرأة أبيه) والترات فى الشهر الحرام، فأجيبوا هذا النبى المرسل من «بنى لؤى بن غالب» تنالوا شرف الدنيا وكرامة الآخرة، سارعوا . . . سارعوا فى ذلك يكون لكم فضيلة عند الله . . !

فأجابوا إلا رجلاً منهم، قام فقال : يا «عمرو بن مرة» أمرَّ الله عيْشك . . ، أتأمرنا أن نرفض آلهتنا، ونفرق جماعتنا بمخالفة دين آبائنا إلى ما يدعو إليه هذا القرشى من أهل «تهامة»!!؟ لا . . . ولا مرحباً ولا كرامة، ثم أنشأ يقول :

إن «ابن مرة» قد أبى بمقالة ليست مقالة من يريد صلاحاً
إنى لأحْسَب قوله وفعاله يوماً وإن طال الزمان رياحا
أتسفه الأشياخ ممن قد مضى من رام ذلك لا أصاب فلاحاً

فقال «عمرو بن مرة» : الكاذب منّى ومنْك أمرَّ الله عيشه، وأبكم لسانه، وأكمه بصره . . ! فوَالله ما ماتَ حتى سقط فوه، وكان لا يجد طعم الطعام، وعَمِىَ وخرس . !

وخَرَج «عمرو بن مرة» ومن أسلم من قومه حتى أتوا النبى «ص»، فرحب بهم وحباهم، وكتب لهم كتاباً [هذا نصه] :

[«بسم الله الرحمن الرحيم؛ هذا كتاب من الله على لسان رسول الله بكتاب صادق، وحق ناطق، مع «عمرو بن مرة» الجهنى لـ«جهينة بن زيد» : لكم بطون الأرض وسهولها، وقلاع الأودية وظهورها، ترعون نباته وتشربون صافيه، على أن تقروا بالخمس، وتصلوا الصلوات الخمس، وفى التبيعة والصريمة (٢) شاتان إن اجتمعتا، وإن تفرقتا فشاة، ليس على أهل الحيرة صدقة، ليس الوردة اللبقة»] (٣).

وأنشد «عمرو بن مرة» يقول :

ألم تر أن الله أظهر دينه
وبين برهان القران لعامر
كتاب من الرحمن نور لجمعنا
وأحلافنا من كل باد وحاضر
إلى خير من يمشى على الأرض كلها
وأفضلها عند اعتكار الضرائر
أطعنا رسول الله لما تقطعت
بطون الأعادى بالظُّبا والخواطر
فنحن قبيل، قد بنى المجْد حولنا
إذا اجتلبت فى الحرب هام الأكابر

(١) التبيعة : أدنى ما تجب فيه الزكاة .
(٢) الصريمة : القطيع من الإبل والغنم .
(٣) اللبقة : الماء .

بنو الحرب نفريها بأَيْــد طويلـــة
وبيــض تلالا فى أكــفَ المغـــاور
ترى حوله الأنصار تحمى أميرهـــم
بسمر العوالى والصفاح البواتـــر
إذا الحرب دارت عند كل عظيمـــة
ودارت رحاها بالليوث الهواصـــر
تبلج منه اللون وازداد وجهـــــه
كمثل ضياء البدر بين الزواهـــر (١)

وحدث «الأموى» قال :

(بينما «عمر بن الخطاب» - رضى الله عنه - فى مجلس يتحدثون فيه عن الجن، قال «خريم بن فاتك» الأسدى - رضى الله عنه، لـ«عمر» : يا أمير المؤمنين . . . ألا أحدثك كيف كان إسلامى !؟ قال : بلى . . ، قال : إني يوماً فى طلب ذود (٢) لى أنا منها على أثر تنصب وتصعد، حتى إذا كنت بـ«أبرق العراق» (٣) أنخت راحلتى وقلت : أَلُوذُ بعظيم هذه البلدة، أعوذ برئيس هذا الوادى، فإذا بهاتف يهتف بى :

ويحك . . عذ بالله ذى الجلال ــــ والمجْــد والعلياء والإفضال
ثم آتْلُ آيات من الأنفــــال ــــ ووحـــد اللـــه لا تبالـــى

---

(١) ذكره «ابن عساكر»، و«السيوطى» فى «جمع الجوامع»، و«مجمع» الزوائد .
(٢) الذود من الإبل ما بين الثلاث إلى العشر .
(٣) الصواب : أبرق الغراف - رمل لـ«بنى سعد» فى جبال الدهناء .

فذعرت ذعــراً شديداً، ثم رجعت إلى نفسى فقلت :

يا أيها الهاتـف ما تقــــول أرشــد عندك أم تضليــــل

بين هداك الله ما الحويل!؟

فقــــال :

هذا رسول اللــه ذو الخيرات بـ «يثرب» يدعو إلى النجاة

يأمــر بالــبر والصـــــلاة ويزع الناس عن الهنــات

فقلت له : والله لا أبرح حتى آتيه وأؤمن به

فنصبت رجلى فى غرز راحلتى وقلت :

أرشدنى رشداً بها هدينـــا لا جعت ما عشت ولا عريتا

ولا رحت سيداً مقيتـــا لا تؤثر الخير الذى أتيتـــا

على جميع الجن ما بقيتا

فأجابــنى :

صاحبك الله وأدى رحْلكــا وعظم الأجر دعائــى نفسكا

آمن به أفلج ربى حقكــــا وانصره نصراً عزيزاً نصركــا

قلت : من أنت عافاك الله . . . حتى أخبره إذا قدمت عليه !؟

فقال : أنا مالك بن ملك، وأنا نقيبه على جن «نصيبين»، وكفيت إبلك حتى أضمها إلى أهلك إن شاء الله .

فخرجت حتى أتيت «المدينة» يوم الجمعة، والناس أرسال إلى المسجد، والنبى « ﷺ » على المنبر . . كأنه البدر - يخطب الناس .

فقلت : أنيخ على باب المسجد حتى يصلى، وأدخل عليه فأسلم وأخبره عن إسلامى؛ فلما أنخت خرج إلى «أبو ذر» فقال: مرحباً وأهلاً وسهلاً، قد بلغنا إسلامك، فآدخل فصلِّ، ففعلت، ثم جئت إلى رسول الله « ﷺ »، فأخبرنى بإسلامى، قلت : الحمد لله . . ، قال [أما إن صاحبك قد وفَّى لك، وهو أهل لذلك، وأدى إبلك إلى أهلك»] (١) .

٨ - الكهنة والعرافون

ولقد كانت الكهانة والعرافة أصلاً أصيلاً فى معتقد العرب أيام جاهليتهم، يقولون عليها ويلجأون إليها فى استطلاع رموز الوقائع والأحداث، ويستنبئونها عن المستجدات المستقبلية، ويأخذون بها أنفسهم أفراداً وجماعات، ويلتزمون . . . !

وإلى جانب الكهان والعرافين، كان هناك «العائفون» و«المنجمون» (٢) . . !

وكل ذلك يدور حول معنى واحد؛ وقد يتوارثها الأبناء عن الآباء، أو الأحفاد عن الأجداد بحكم الجو الأسرى والاطلاع القريب، أو الإلهام أحياناً . . !

وكان من أشهر من عرف من هؤلاء قبل النبوة : «شق» و«سطيح» .

---

(١) «ابن عساكر» - «الاصابة» - «مجمع الزوائد» - «ابن أبى شيبة» - «الطبرانى» - [البداية والنهاية؛ ج : ٢ ، ص : ٤٣٣] .

(٢) المنجِّمون : الذين يرصدون تحركات النجوم والكواكب فى أبراجها ويربطون ذلك بأقدار الناس!!!

أما «شق» فهو : «ابن صعب بن يشكر بن رهم بن أفرك بن قيس بن عبقر بن أنمار بن نزار»؛ وكان نصف إنسان (١) .

وأما «سطيح» فإسمه : «ربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب ابن عدى بن مازن بن غسان»؛ ويقال إنه كان لا أعضاء له، وإنما كان مثل السطيحة، ووجهه فى صدره؛ وكان إذا غضب انتفخ وجلس .

ومما يروى أنهما - أى «شق» و«سطيح» وُلدا فى يوم واحد، وكان ذلك يوم ماتت «طريفة بنت الخير» - الحميرية - ، وأنها تفلت فى فم كل منهما فورث الكهانة عنها ، [البداية والنهاية] [ج: ٢، ص: ١٩٧] .

أما قصتهما فى التنبؤ بظهور سيدنا رسول الله « ص » ، ورسالة الإسلام وما يرافق ذلك من أمور، فيحدثنا عنها رأس كتاب السيرة المطهرة «محمد بن اسحاق المطلبى» فيقول :

(كان «ربيعة بن نصر» ملك اليمن بين أضعاف فلول التبابعة (٢)، فرأى رؤيا هائلة، هالته وفظع بها، فلم يدع كاهناً ولا سامراً ولا عائفاً ولا منجماً من أهل مملكته إلا جمعه إليه، فقال لهم : إنى قد رأيت رؤيا هالتنى وفَظعْتُ بها، فأخبرونى بها وبتأويلها . . . ، فقالوا : أقصصها علينا نخبرك بتأويلها !! فقال : إنى إن أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم بتأويلها لأنه لا يعرف تأويلها إلا من عرفها قبل أن أخبره بها . . ! فقال له رجل منهم : فإن كان الملك يريد هذا فليبعث

(١) يعنى ناقص الأعضاء التى تكتمل بها صورة الإنسان الآدمى؛ ومن صورته هذه اشتق إسمه .

(٢) الذين تلقبوا بـ«تبَّع» .

إلى «شق» و«سطيح»، فإنه ليس أحد أعلم منهما، فهما يخبرانه بما سأل عنه .

فبعث إليهما . . .

فقدم إليه «سطيح» قبل «شق»، فقال له : إنى قد رأيت رؤيا هالتنى وفظعت بها، فأخبرنى بها فإنك إذا أصبتها أصبت تأويلها . . . ، قال : أفعل . . . ، رأيت حممة [١] خرجت من ظلمة، فوقعت فى أرض تهمة [٢] فَأَكَلَتْ منها كل ذات جمجمة ؛ [٣] .

فقال له الملك : ما أخطأت منها شيئاً يا «سطيح» . . . ، فما عندك فى تأويلها؟ قال : أحلف بما بين الحرتين من حنش، لتهبطن أرضكم [٤] الحبش، فليملكُنَّ ما بين «أبين» إلى «جرش» [٥]، فقال له الملك : يا «سطيح» إن هذا لنا لغائظ موجع، فمتى هو كائن؟ أفى زمانى أم بعده؟ فقال : لا وأبيك . . . ، بل بعده بحين، أكثر من ستين أو سبعين . . يمضين من السنين . . . ، قال الملك : أفيدوم ذلك من سلطانهم أم ينقطع؟ قال : بل ينقطع لبضع وسبعين من السنين، ثم يقتلون ويخرجون منها هاربين ؛ قال : ومن يلى ذلك من قتلهم وإخراجهم؟ قال : يليهم «إرم بن ذى يزن» يخرج عليهم من «عَدَن»، فلا يترك منهم أحداً باليمن قال : أفيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع؟

---

(١) الحممة : فحمة ملتهبة .

(٢) التهمة : الأرض المنخفضة المنصوبة نحو البحر ، وبها سميت «تهامة» .

(٣) جَمْجَمَ الرجل ؛ (بفتح الجيم) : لم يبين كلامه، والجمجمة (بضم الجيم) : عظم الرأس .

(٤) إنباء باستيلاء الحبش على اليمن .

(٥) إسم موضعين بـ«اليمن» .

قال : بل ينقطع ، قال : ومن يقطعه؟ قال : نبى زكى ، يأتيه الوحى من قبل العلىِّ، قال : وممن هذا النبى؟ قال : رجل من ولد «غالب بن فهر ابن مالك بن النضر» ، يكون الملك فى قومه إلى آخر الدهر ، قال : وهل للدهر من آخر؟ قال : نعم . . . يوم يجمع فيه الأولون والآخرون ، يسعد فيه المحسنون ، ويشقى فيه المسيئون . . ، قال : أحق ما تخبرنى ؟؟ قال : نعم . . والشفق والغسق والفلق إذا اتسق إن ما أنبأتك به لحق .

ثم قدم عليه «شق» فقال له كقوله لـ «سطيح» ، وكتمه ما قال لينظر أيتفقان أم يختلفان !!! قال [شق] : نعم رأيت حممة خرجت من ظلمة فوقعت فى روضة وأكمه ، فأكلت منها كل ذات نسمة .

فلما قال له ذلك عرف أنهما قد اتفقا ، وأن قولهما واحد ، إلا أن «سطيحاً» قال : وقعت بأرض تهمه ، فأكلت منها كل ذات جمجمة . . ، وقال «شق» : وقعت بين روضة وأكمة فأكلت منها كل ذات نسمة .

فقال له الملك : ما أخطأت يا «شق» منها شيئاً . . ! فما عندك فى تأويلها؟ قال : أحلف بما بين الحرتين من إنسان لينزلن أرضكم السودان فليغلبن على كل طفلة [1] البنان ، وليملكن ما بين «أبين» إلى «نجران» . . ، فقال له الملك : وأبيك يا «شق» إن هذا لنا لغائظ موجع ، فمتى هو كائن؟ أفى زمانى أم بعده؟ قال : لا . . بل بعده بزمان ، ثم يستنقذكم منهم عظيم ذو شان ، يذيقهم أشد الهوان .

---

(١) الطفلة : الناعمة الرخصة .

قال : ومن هذا العظيم الشان ؟ قال : غلام ليس بدنى ولا مدن، يخرج عليهم من بيت «ذى يزن» فلا يترك أحداً منهم بـ«اليمن» .

قال : أفيدوم سلطانه أم ينقطع؟ قال : بل ينقطع برسول مرسل، يأتى بالحق والعدل، من أهل الدين والفضل، يكون الملك فى قومه إلى يوم الفصل . . . ، قال : وما يوم الفصل؟ قال : يوم يجزى فيه الولاة ، يدعى فيه بدعوات من السماء، تسمع منه الأحياء والأموات، ويجمع فيه الناس للميقات، يكون فيه لمن اتقى الفوز والخيرات .

قال : أحق ما تقول ؟ قال : إى ورب السماء والأرض، وما بينهما من رفعٍ وخَفْضٍ . . . إن ما أنبأتك لحق ما فيه أَمْض (١) .

٩ - من إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام - إلى «عبد الله بن عبد المطلب» ..!!

قال رسول الله « ﷺ » : [«انا ابن الذبيحين»]

يعنى جده الأعلى «إسماعيل» - عليه السلام ، وأباه «عبد الله بن عبد المطلب» ؛ ولكل منهما قصة نذر بالذبح وفداء من الله تعالى . . !

ولقد ذكر الله تعالى فى القرآن الكريم قصة «ابراهيم» و«إسماعيل» عليهما السلام ؛ الرؤيا التى رآها «إبراهيم» . . ! والفداء الذى تم ، والثناء العظيم .

قال عز من قائل فى سورة «الصافات» : ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا

---

(١) أَمْض : باطل . أو : شك بلغة «حِمْير» .

بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين (١٠٢) فلما أسلما وتله للجبين (١٠٣) وناديناه أن يا إبراهيم (١٠٤) قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين (١٠٥) إن هذا لهو البلاء المبين (١٠٦) وفديناه بذبح عظيم (١٠٧) وتركنا عليه في الآخرين (١٠٨) سلام على إبراهيم (١٠٩) كذلك نجزي المحسنين (١١٠) إنه من عبادنا المؤمنين (١١١) وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين (١١٢) وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين﴾ [٩٩ - ١١٣] .

ولا نطيل الحديث - أو نكرره - فى قصة «إبراهيم» و«إسماعيل» - عليهما السلام - فإن لذلك مواضعه ومظانه، فقط نريد أن نوضح أمراً له أهميته وضرورته، إذ تدَّعى «التوراة» - الموجودة الآن - أن الذبيح هو «إسحاق» وابن «إسماعيل» - عليهما السلام - !! ولقد ذهب إلى القول بهذا الرأى بعض علماء السلف - رحمهم الله تعالى وغفر لهم-، لكنَّ الأكثرين والجمهور على أنَّه «إسماعيل» - عليه السلام، واستندوا فى ذلك إلى أن البشرى لـ «ابراهيم» بـ «إسحاق» عليهما السلام - إنما كانت بعد الابتلاء . . !

وأيضاً . . فإن «التوراة» الحالية تشهد بذلك، حين تذكر أن الله تعالى أمر «إبراهيم» يذبح ولده «الوحيد» . . . ، فهل يكون «الوحيد» هو إسحاق» وقد سبقه إلى الوجود «إسماعيل» بأربع عشرة سنة !!؟؟ فكيف يكون ذلك ؟؟!

يقول الشيخ «عبد الوهاب النجار» رحمه الله [1] .

(وفى اعتقادى أن لفظ «إسحاق» حشر حشراً فى غضون القصة ، وذلك حرصاً منهم «أى أهل الكتاب» على أن يكون أبوهم هو الذبيح الذى جاد بنفسه فى طاعة ربه ، وهو فى حالة صغره) ا - هـ .

الذبيح الثانى : «عبد الله بن عبد المطلب»

يقول «ابن إسحاق» : (وكان «عبد المطلب» - فيما يزعمون - نذر حين لقى من قريش ما لقى عند حفر «زمزم» [2] : لئن ولد له عشرة نفر ، ثم بلغوا معه حتى يمنعوه ، ليذبحن أحدهم لله عند «الكعبة» .

فلما تكامل بنوه عشرة ، وعرف أنهم سيمنعونَهُ ، وهم :

«الحارث» و «الزبير» و «حجل» و «ضرار» و «المقوّم» و «أبو لهب» [3] و «العباس» و «حمزة» و «أبو طالب» و «عبد الله» .

جمعهم ثم أخبرهم بنذره ودعاهم إلى الوفاء لله عز وجل بذلك ، فأطاعوه وقالوا : كيف نصنع؟ قال : ليأخذ كل رجل منكم قدحاً ثم يكتب فيه اسمه ، ثم ائتونى ؛ ففعلوا ثم أتوه ، فدخل بهم على «هبل» فى جوف الكعبة - وكانت تلك البئر هى التى يجمع فيها ما يهدى لـ «الكعبة» .

وكان عند «هبل» قداح سبعة - وهى الأزلام التى يتحاكمون إليها

---

(١) قصص الأنبياء عليهم السلام - (ص : ١٣٤) .

(٢) أمر بذلك من خلال رؤيا تكررت أربع ليال ، فلما بدأ اعترضته قريش ومنعته ، ولكنه فعل ، وطلب من ولده «الحارث» أن يحمِّيه ، ولم يكن له ولد غيره .

(٣) كان إسمه : «عبد الغزى» وكان إسم أبى طالب : عبد مناف .

إذا أعضل عليهم أمر من عقل [1] أو نسب أو أمر من الأمور - جاؤوه فاستقسموا بها، فما أمرتهم به أو نهتهم عنه امتثلوه .

والمقصود أن «عبد المطلب» لما جاء يستقسم القداح عند «هبل»، خرج القدح على ابنه «عبد الله»، وكان أصغر ولده وأحبهم إليهم، فأخذ «عبدالمطلب» بيد ابنه «عبد الله» وأخذ الشفرة، ثم أقبل به إلى «إساف» و«نائلة» [2]، يذبحه، فقامت إليه قريش من أنديتها فقالوا : ما تريد يا «عبد المطلب» ؟ قال : اذبحه . . ! فقالت له «قريش» وبنوه - إخوة عبد الله» - : والله لا تذبحه أبداً حتى تعذر فيه . . ، لئن فعلت هذا لايزال الرجل يجيء بابنه حتى يذبحه . . ، فما بقاء الناس بعد هذا !!؟؟) .

(ثم أشارت «قريش» على «عبدالمطلب» أن يذهب إلى «الحجاز» فإن بها عرافة لها تابع، فيسألها عن ذلك . . !

ثم أنت على رأس أمرك، إن أمرتك بذبحه فأذبحه، وإن أمرتك بأمر لك وله فيه مخرج قبلته . . ! فانطلقوا حتى أتوا المدينة [3]، فوجدوا العرافة- وهي «سجاح» . . . بـ«خيبر»، فركبوا حتى جاؤوها فسألوها، وقص عليها «عبد المطلب» خبره وخبر ابنه، فقالت لهم : ارجعوا عني اليوم حتى يأتيني تابعي فأسأله، فرجعوا من عندها، فلما

---

(١) أي : من دية أو فدية .

(٢) «إساف و نائلة» : صنمين كاناعند الصفا و المروة - يقال بأنهما كانا رجلاً وامرأة زنيا عند «الكعبة» فمسخهما الله تعالى صنمين .

(٣) يعني : يثرب .

خرجوا قام «عبد المطلب» يدعو الله . . ، ثم غدوا عليها ، فقالت لهم : قد جاءنى الخبر . . ، كم الدية فيكم؟ قالوا : عشر من الإبل - وكانت كذلك - ، وقالت : فارجعوا إلى بلادكم ثم قربوا صاحبكم وقربوا عشراً من الإبل ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح ، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم ، وإن خرجت على الإبل فأخروها عنه فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم .

فخرجوا حتى قدموا «مكة» ، فلما أجمعوا على ذلك الأمر ، قام «عبدالمطلب» يدعو الله ، ثم قربوا «عبد الله» وعشراً من الإبل ، ثم ضربوا فخرج القدح على «عبد الله» ، فزادوا عشراً ثم ضربوا فخرج القدح على «عبد الله» ، فلم يزالوا يزيدون عشراً عشراً ، ويخرج القدح على «عبد الله» حتى بلغت الإبل مائة . . ، ثم ضربوا فخرج القدح على الإبل ، فقالت عند ذلك «قريش» لـ«عبد المطلب» . . وهو قائم عند «هبل» يدعو الله - : قد انتهى - رضى ربك يا «عبد المطلب» . . !!) وتم الفداء . . !

ومما هو جدير بالذكر فى هذا الصدد ما ذكره ابن «إسحاق» ، قال :

(ثم انصرف «عبد المطلب» آخذاً بيد ابنه «عبد الله» ، فمر به - فيما يزعمون (١) ، على امرأة من «بنى أسد بن عبد العزى بن قصى» هى : «أم قتال» أُخْت «ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصى» ،

---

(١) الزعم الذى قصده «ابن اسحاق» هو : القول وهو المعنى اللغوى للكلمة ، وليس ما يتبادر إلى الذهن من تَضْعيف أو تهوين !! .

وهى عند «الكعبة»، فنظرت إلى وجهه فقالت : أين تذهب يا «عبد الله»؟ قال : مع أبى . . ! فقالت : لك مثل الإبل التى نحرت عنك وقع على الآن (١) . . ! قال : أنا مع أبى . . ولا أستطيع خلافه ولا فراقه.

فخرج «عبد المطلب» حتى أتى «وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فِهْر» - وهو يومئذ سيد «بنى زهرة» سناً وشرفاً، فزوجه ابنته «آمنه بنت وهب» وهى يومئذ سيدة نساء قومها، فزعموا أنه دخل عليها حين أملكها مكانه فَوَقَعَ عليها، فحملت منه برسول الله « ﷺ » .

ثم خرج من عندها، فأتى المرأة التى عرضت عليه ما عرضت، فقال لها : ما لك لا تعرضينَ على اليوم ما كنت عرضت بالأمس؟ قالت له : فارقك النور الذى كان معك بالأمس فليس لى بك حاجة!!!

وكانت تسمع من أخيها «ورقة بن نوفل» - وكان قد تنصر واتبع الكتب - أنه كائن فى هذه الأمة نبى . . ، فطمعت أن يكون منها، فجعله الله تعالى فى أشرف عنصر وأكرم مَحْتِد وأطيب أصل، كما قال تعالى ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾[الأنعام: ١٢٤]﴾ا- هـ.

وروى الإمام «البيهقى» - رحمه الله - فى «الدلائل» ؛ أن «أم قتال» هذه انشدت شعراً فقالت :

(١) تقصد الزواج به (وكان إسمها : رقيقة) .

عليك بآل زهرة حيث كانــوا   و«آمنة» التى حملت غلامـا
ترى المهدى حين نزا عليهـــا   ونوراً قد تقدمه أمامـــــا
فكل الخلق يرجــوه جميعـاً   يسود الناس مهتدياً إمامـــا
براه الله من نور صفـــــاه   فأذهب نوره عنّا الظلامــا
وذلك صنع ربك إذ حبـــاه   إذا ما سار يوماً أو أقامـــا
فيهدى أهل «مكة» بعد كفر   ويفرض بعدذ لكم الصياما

١٠- رؤى «آمنة» أثناء الحمل .

يقول «محمد بن إسحاق المطلبى» : (كانت آمنة بنت وهب» أم رسول الله ـ ﷺ - تحدث أنها أتيت - حين حملت برسول الله - ﷺ - فقيل لها : إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ، فإذا وقع على الأرض فقولى :

أعيذه بالواحـــــد   مـن شـر كل حاســد
من كل بر عاهـــد   وكل عبـــد رائــــد
يذود عنى ذائـــــد   فإنه عند الحميد الماجد
حتى أراه قد أتى المشاهد

وآية ذلك أنه يخرج معه نوره يملأ قصور «بصرى» من أرض الشام ، فإذا وقع فسميه «محمداً» ، فإن إسمه فى «التوراة» «أحمد» ، يحمده أهل السماء وأهل الأرض ، واسمه فى «الإنجيل» «أحمد»

يحــمــده أهل الســمــاء وأهل الأرض، واســمــه فـى «القــرآن» «محمـد») (١) .

وروى «الواقدى» عن «محمد بن كعب القرظى» وعن «أبى وجزة» و«مجاهد» و«ابن عباس» - دخل حديث بعضهم فى حديث بعض : (أن «آمنة بنت وهب» قالت «لقد علقت به - تعنى رسول الله - ﷺ - فما وجدت له مشقة حتى وضعته، فلما فصل منى خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق إلى المغرب، ثم وقع على الأرض معتمداً على يديه، ثم أخذ قبضةً من التراب فقبضها ورفع رأسه إلى السماء (٢)) .

وروى «البيهقى» فى «الدلائل» عن «عثمان بن أبى العاص» قال : (حدثتنى أمى أنها شهدت ولادة «آمنةبنت وهب» رسول الله - ﷺ - ليلة ولدته، قالت : فما شىء أنظره فى البيت إلا نور، وإنى أنظر إلى النجوم تدنو حتى إنى لأقول : ليقعن على) .

أما قابلته - ﷺ - «الشفاء» - أم «عبد الرحمن بن عوف» ، فقد روى «القاضى عياض» (أنها أخبرت حين سقط على يديها وآستهل سمعت قائلاً يقول : يرحمك الله، وأنه سطع منه نور رؤيت منه قصور الروم) .

ومن كرامته - ﷺ - على الله تعالى أنه ولد مسروراً (٣) مختوناً، ولقد كثرت الروايات فى ذلك .

---

(١) فى هذه الرواية ضعف وغرابة لأن ذكر القرآن الكريم فيها يبدو مصطنعاً، فالقرآن لم يوح به بعد، ولم يسمع به!! ولكن تعضد باقى الكلام روايات أخرى متعددة .

(٢) وقيل : وقع جاثياً على ركبتيه .

(٣) مسروراً : أى مقطوع الحبل السرى .

إذ روى «الحافظ ابن عساكر» عن «أنس بن مالك» رضى الله عنه [عن رسول الله « ﷺ » أنه قال : [من كرامتى على الله أنى ولدت مختوناً، ولم ير سوأتى أحد»] .

وكذلك روى«الحافظ بن عساكر» عن «نافع» عن «ابن عمر» قال : [ولد رسول الله « ﷺ » مختوناً مسروراً .

فأعجب ذلك جده «عبد المطلب» وحظى عنده، وقال : ليكونن لآبني هذا شأن؛ فكان له شأن] .

روى الإمام «البيهقى» فى «الدلائل» عن «أبى الحكم التنوخى» قال : [كان المولود إذا ولد فى «قريش» رفعوه إلى نسوة من قريش إلى الصبح، يكْفأنَ عليه برمة (١) . . . ، فلما ولد رسول الله « ﷺ » رفعه «عبد المطلب» إلى نسوة يكْفأنَ عليه برمة، فلما أصبحن أتين فوجدن البرمة قد انفلقت عنه بآثنتين، ووجدنه مفتوح العينين، شاخصاً ببصره إلى السماء، فآتاهن «عبد المطلب»، فقلن له : ما رأينا مولوداً مثله، وجدناه قد انفلقت عنه البرمة، ووجدناه مفتوحاً عينيه، شاخصاً ببصره إلى السماء، فقال : إحفظنه، فإنى أرجو أن يكون له شأن - أوْ أن يصيب خيراً - .

فلما كان اليوم السابع ذبح عنه، ودعا له «قريشاً»، فلما أكلوا قالوا : يا «عبد المطلب» أرأيت إبنك هذا الذى أكرمتنا على وجهه، ما سميته؟؟ قال : سميته «محمداً»؛ قالوا : فما رغبت به عن أسماء أهل بيته؟ قال : أردت أن يحمدهُ الله تعالى فى السماء وخلقه فى الأرض. . .] .

---

(١) أى : يغطينه بقدر .

١١- ما وقع من الآيات ليلة مولده « ﷺ »

(أ) حكى «السهيلى» عن تفسير «بقى بن مخلد» : (أن «إبليس» [١] رن أربع رنات؛ حين لعن، وحين أهبط، وحين ولد رسول الله « ﷺ » وحين أنزلت الفاتحة) .

(ب) وقال «ابن إسحاق» : كان «هشام بن عُرْوَةَ» يحدث عن أبيه، عن «عائشة» - رضى الله عنها - قالت : [كان يهودى قد سكن «مكة» يتجر بها، فلما كانت الليلة التى ولد فيها رسول الله « ﷺ » قال فى مجلس من «قريش» : يامعشر قريش . . هل ولد فيكم الليلة مولود؟ فقال القوم : والله ما نعلمه . . . ، فقال : الله أكبر . . . ، أما إذا أخطأكم فلا بأس، انظروا واحفظوا ما أقول لكم : ولد هذه الليلة نبى هذه الأمة الأخيرة، بين كتفيه علامة فيها شعرات متواترات، كأنهن عرف فرس، لا يرضع ليلتين، وذلك أن عفريتاً من الجن أدخل أصبعه فى فمه فمنعه الرضاع .

تصدع [٢] القوم من مجلسهم وهم يتعجبون من قوله وحديثه، فلما صاروا إلى منازلهم أخبر كل إنسان منهم أهله، فقالوا : قد ولد لـ «عبد الله بن عبد المطلب» غلام فسموه «محمداً»، فالتقى القوم فقالوا: هل سمعتم حديث اليهودى؟ هل بلغكم مولد هذا الغلام ؟

---

(١) رن : صات وصاح .

(٢) تصدع القوم : تفرقوا .

فانطلقوا حتى جاؤوا اليهودى فأخبروه الخبر، قال : فاذهبوا معى حتى أنظر إليه؛ فخرجوا به حتى أدخلوه على «آمنة»، فقالوا : أخرجى إلينا ابنك . . ، فأخرجته، وكشفوا له عن ظهره، فرأى تلك الشامة . . ، فوقع اليهودى مغشياً عليه، فلما أفاق قالوا له : ما لَكَ» . . . ويلك !!؟؟ .

قال : قد ذهبت والله النبوة من «بنى إسرائيل» فَرُحْتُمْ بها يا معشر «قريش» . . . ، والله لِيَسْطُوَنَ بكم سطوة يخرج خبرها من المشرق والمغرب] .

(ج) وروى «محمد بن إسحاق» . . . عن «حسان بن ثابت» - رضى الله عنه - قال : [إنِّى لغلام يفعة - ابن سبع سنين، أو ثمان سنين - أَعْقِل ما رأيت وسمعت، إذا بيهودى فى «يثرب» يصرخ ذات يوم : يا معشر يهود !!!، فاجتمعوا إليه - وأنا أسمع - فقالوا : ويلك مالك؟؟ قال : قد طلع نجم «أحمد» الذى يولد هذه الليلة] .

(ز) وروى الحافظ «أبو نعيم» فى كتاب «دلائل النبوة» . . . عن «سعد مالك بن سنان» عن أبيه قال : [جئت «بنى عبد الأشهل» يوماً لأتحدث فيهم - ونحن يومئذ فى هدنة من الحرب (١)، فسمعت «يوشع» - يهودى - يقول : أظل خروج نبى يقال له «أحمد»، يخرج من الحرم .

---

(١) بين الأوس و «الخزرج .

فقال له «خليفة بن ثعلبة» - الأشهلىّ -، كالمستهزىء : ما صفته؟ فقال : رجل ليس بالقصير ولا بالطويل، فى عينيه حمرة، يلبس الشملة، ويركب الحمار، سيفه على عاتقه. وهذا البلد (١) مهاجره] يقول «مالك بن سنان» - والد أبى سعيد الخدرى - فرجعت إلى قومى «بنى خدرة» وأنا يومئذ أتعجَّب مما يقول «يوشع»، فأسمع رجلاً منا يقول : و«يوشع» يقول هذا وحده !!؟؟ كل يهود «يثرب» يقولون هذا. . ! قال «أبو مالك» : فخرجت حتى جئت «بنى قريظة» فأجد جمعاً. . . فتذاكروا النبى « ﷺ »، فقال «الزبير بن باطى» : قد طلع الكوكب الأحمر الذى لم يطلع إلا لخروج نبى أو ظهوره، ولم يبْق أحد إلا «أحمد»، وهذا مهاجَرُهُ . ! قال : «أبو سعيد» : فلما قدم النبى «أخبره» أبى هذا الخبر، فقال رسول الله - ﷺ - : لو أسلم «الزبير» لأسلم ذووه من رؤساء اليهود، إنما هم له تبع»].

(هـ) وروى «أبو نعيم» . . عن «أم سعد بن سعد بن الربيع» قالت : «سمعت» «زيد بن ثابت» «يقول : [كان أحْبارُ يهود «بنى قريظة» و«بنى النضير» يذكرون صفة النبى « ﷺ »، فلما قدم رسول الله « ﷺ » «المدينة» أنكروا وحسدوا وكفروا . .] .

---

(١) يعنى : يثرب (المدينة) .

(و) إرتجاس إيوان «كسرى» وسقوط الشرفات وخمودُ النيران!!

وروى الخرائطى [1] فى كتاب: (هواتف الجان)... عن «هانىء المخزومى» عن أبيه - وكان قد عاش مائة وخمسين سنة، قال: (لما كانت الليلة التى ولد فيها رسول الله «ص» آرتجس إيوان كسرى [2] وسقطت منه أربع عشرة شرفة، وخمدت نار فارس، ولم تخمد قبل ذلك بألف عام؛ وغاضت[3] بحيرة «ساوة»، ورأى «الموبذان» [4] إبلاً صعاباً تقود خيلاً عراباً، قد قطعت «دجلة» وانتشرت فى بلادهم، فلما أصبح «كسرى» أفزعه ذلك، فتصبر عليه مشجعاً، ثم رأى أنه لا يدخر ذلك على مرازبته [5] فجمعهم ولبس تاجه وجلس على سريره، ثم بعث إليهم، فلما اجتمعوا عنده قال: أتدرون فيم بعثت إليكم؟ قالوا: لا..، إلا أن يخبرنا الملك.!

فبينما هم كذلك إذ ورد عليهم كتاب خمود النيران، فازداد غماً إلى غمه، ثم أخبرهم بما رأى وما هاله، فقال « الموبذان»: وأنا - أصلح الله الملك - قد رأيت فى هذه الليلة رؤيا، ثم قص عليه رؤياه فى الإبل؛ فقال: أى شىء يكون هذا يا موبذان ؟؟ قال: حدث يكون فى ناحية العرب - (وكان أعلمهم من أنفسهم) -!

---

(١) هو: [الحافظ أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل].

(٢) آرتجس: اهتز وتزلزل.

(٣) غاضت: ذهب ماؤها وجفت.

(٤) الموبذان: كبير القوم وسيدهم؛ والخيل العراب: الأصيلة.

(٥) مرازبته: رجال الحكم.

فكتب عند ذلك : [من كسرى ملك الملوك [1] إلى «النعمان بن المنذر» [2] أما بعد فوجه إلىَّ برجل عالم بما أريد أن أسأله عنه] .

فوجه إليه بـ «عبد المسيح بن عمرو بن حيان بن نفيلة الغسانى» ؛ فلما ورد عليه قال له : ألك علم بما أريد أن أسألك عنه !؟ فقال : لتخبرنى أو ليسألنى الملك عما أحب ، فإذا كان عندى منه علم وألا أخبرته بمن يعلم فأخبره بالذى وجه به إليه فيه .

قال : علم ذلك عند خال لى يسكن مشارف الشام ، يُقال لَهُ «سطيح» [3] .

قال : فأتته فاسأله عما سألتك عنه ثم ائتنى بتفسيره .

فخرج «عبد المسيح» حتى انتهى إلى «سطيح» ، وقد أشفى على الضريح [4] ، فسلم عليه وكلمه ، فلم يرد إليه سطيح» جوابا ، فأنشأ يقول :

أصم . . . أم يسمع غطريف اليمن
أم فاد فازْلَمَّ به شَأْوُ العنن
يا فاصل الخُطَّة أعْيتْ من ومن
أتاك شيخ الحىِّ من آل سنن
وأمه من آل «ذئب بن عجن»

---

(١) وهى بالفارسية : شاهنشاه .
(٢) النعمان بن المنذر : ملك العرب على العراق ، من قبل الفرس .
(٣) سطيح : الكاهن الذى سبق الحديث عنه .
(٤) أشفى على الضريح : قارب الموت .

أزرق نهم الـناب صـرار الأذن
أبيض فضفاض الرداء والبـدن
رسول قيل العجم يسرى للوسن
يجوب بِى الأرض علنداه شَزَن
لا يرهب الرعد ولا ريب الزمـن
ترفعنى وجناً وتهوى بِى وجـن
حتى أتى عارى الجآجىء والقطن
تلفه فى الريح بوغـاء الدمـن
كأنما حثحثِ من حضنىْ ثكـن

فلما سمع «سطيح» شعره رفع رأسه يقول: «عبد المسيح» على جمل مُشيح، أتى سطيح، وقد أوفى على الضريح، بعثك ملك «ساسان» لآرتجاس الايوان، وخمود النيران، ورؤيا «الموبذان»، رأى إبلاً صعاباً، تقود خيلاً عراباً، قد قطعت «دجله»، وانتشرت فى بلادها . . !

يا «عبد المسيح» إذا كثرت التلاوة، وظهر صاحب الهراوة، وفاض وادى السماوة (١)، وغاضت بحيرة «ساوة»، وخمدت نار فارس، فليس الشام لِـ«سطيح» شاماً، يملك منهم ملوك وملكات، على عدد الشرفات، وكل ما هو آتٍ آت .

(١) بادية ما بين الشام والعراق .

ثم قضى «سطيح» مكانه، فنهض «عبد المسيح» إلى راحلته، وهو يقول :

شَمِّر فإنك ماضي العـزم شمـــير
لا يفزعنــك تَفْرِيــق وتغيــــير
إن يُمْسِ ملك بنى ساسان أفرطهم
فإن ذا الدهـر أطوار دهاريــــــر
فربما - ربما - أضحـواْ بمنزلـــة
يخاف صولهـم الأسـد المهاصـيرُ
منهم أخو الصرح «بهرام» وإخوتـه
و«الهرمزان» و«شابور» و«سابور»
والناس أولاد علات فمن علمـوا
أن قد أقل فمحقور ومهجــــور
ورب قوم لهم صحبـــان ذى أُذُن
بدت تلهيهـم فيـــه المزامـــيرُ
وهم بنو الأم إما أن رأوْا نشـــباً
فذاك بالغيب محفوظ ومنصـــور
والخير والشر مقرونان فى قــــرن
فالخير متبع والشـر محــــذور

فلمـا قـدم «عبـد المسيح» على «كسرى» أخبـره بما قـال له «سطيح» . . !

فقال «كسرى» : إلى أن يملك منا أربعة عشر ملكاً كانت أمور وأمور . . !، ! - هـ

فملك منهم عشرة في أربع سنين، وملك الباقون إلى خلافة «عثمان» - رضي الله عنه - (1) .

١٣- عام «الفيل»

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [سورة الفيل] .

كان «أبرهة الأشرم» (2) ملكاً على «اليمن» من قبل «النجاشي» ، - ملك الحبشة - ، فأراد «أبرهة» أن يحمل أهل «اليمن» على النصرانية التي يدين بها، فبنى في «صنعاء» كنيسة (3) لم ير مثلها في زمانها، وكتب إلى النجاشي يقول : (إني قد بنيت لك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك، ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب) ويحدثنا «السهيلي» في الرَّوْض الأُنُف» عن ذلك فيقول :

(إن «أبرهة» استذل أهل «اليمن» في بناء هذه الكنيسة الخسيسة وسخرهم فيها أنواعاً من السخر، وكان من تأخر عن العمل حتى تطلع الشمس يقطع يده لا محالة؛ وجعل ينقل إليها من قصر «بلقيس» رخاماً وأحجاراً وأمتعة عظيمة، وركب فيها صلباناً من

---

(1) قال ذلك ابن كثير (البداية والنهاية) (ج : ٢) ص (٣٢٩) وقال : رواه «البيهقي» .
(2) الأشرم : مشقوق الشفة .
(3) عرفت باسم : «القليس» .

ذهب وفضة، وجعل فيها منابر [1] من عاج وأبنوس، وجعل ارتفاعها عظيماً جداً، واتساعها باهراً . . .) [2] .

لكن أهل «اليمن» ظلوا على ولائهم لـ «البيت العتيق» بَ «مكة»، يحجون إليه فى الموسم، يعظمونه ويقدسونه، لا الإغراء صرفهم، ولا التهديد أفلح فى ثَنْيهم . . .، حتى إنهم كانوا يسخرون مما صنع «أبرهة» . . .، وبلغ الهزء عندهم أن أحدهم - من «كنانة» - أتى «القليس» وقضى حاجته فيها !!!

وأخبر «أبرهة» بذلك . . .، فقال : من صنع هذا ؟؟ فقيل له : صنعه رجل من أهل هذا «البيت» الذى تحجه العرب بـ «مكة»، لما سمع بقولك أنك تريد صرف حج العرب إلى بيتك هذا . . ! فغضب «أبرهة» عند ذلك وحلف ليسيرن إلى «البيت» حتى يهدمه .

ثم أمر «الحبشة» فتهيأت وتجهزت، ثم سار وخرج معه بالفيل [3]؛

وسمعت العرب بذلك، فأعظموه وفظعوا به، ورأوا جهاده والتصدى له حقا عليهم . . .، فخرج إليه رجل، كان من أشراف اليمن إسمه «ذونَفَر»، فدعا قومه ومن أجابه من العرب إلى حرب «أبرهة» . . .، ثم عرض له فقاتله، فهزم «ذونفر» وأصحابه ووقع أسيراً، فلما أراد «أبرهة» قتله قال له «ذونَفَر» : أيها الملك لا تقتلنى

---

(١) هى فى الطقس الدينى المسيحى : مذابح .
(٢) (البداية والنهاية) (ج : ٢) (ص : ٢١١) .
(٣) قال «ابن الأثير» (١/ ٤٤٢) : كان إسم الفيل : محموداً»، وقيل كان معه ثلاثة عشر فيلاً، وإنما وحد الله تعالى الفيل لأنه عنى به كبيرها «محموداً»

فإنه عسى أن يكون بقائى معك خيراً من القتْل . . . ، فتركه . . . وحبسه فى وثاق عنده .

حتى إذا كان جيش «أبرهة» بأرض «خثعم» عرض له «نفيل بن حبيب الخثعمى» فى قبيلتى «شهران» و«ناهس» ومن تبعه من قبائل العرب ، يريد صده ، لكنه هزم أيضاً ، ووقع فى الأسر ، فلما أراد «أبرهة» قتله قال له «نفيل» : أيها الملك لا تقتلنى . . . فإنى دليلك فى أرض العرب . . . ، فامتنع «أبرهة» واتخذ «نفيلاً» دليلاً .

ولما بلغ «أبرهة» «الطائف» خرج إليه «مسعود بن معتب» فى رجال «ثقيف» فقالوا له : أيها الملك إنما نحن عبيدك ، سامعون لك مطيعون ، لا نخالفك فيما تريد ، فتجاوز عنهم .

وهكذا نرى - عزيزى القارىء - أن بعض قبائل العرب قد أخذتها الحمية على «الكعبة» والدفاع عنها ، ولكنَّها فى واقع حالها كانت أقل عدداً وأضعف جنداً من أن تواجه جيش «أبرهة» أو تتغلب عليه ، وأن بعضها الآخر مال إلى «أبرهة» من غير قتال ، واستسلم - كما فعلت «ثقيف» ! ! !

وهذه الحمية . . كانت حمية الجاهلية . . . لا تجمع أصحابها عقيدة سليمة ، أو صلة وثيقة بالله تعالى ، واضحة بينة . . ، كما أنها لا تجتمع على قلب رجل واحد . . !

ويحدثنا «ابن اسحاق» عن تتابع الوقائع ، فيقول :

(فلما نزل «أبرهة» بـ «المغمس» (١) بعث رجلاً من «الحبشة» يقال

(١) من ضواحى «مكة» فى الطريق من «الطائف» إليها .

له «الأسْود بن مفصود» على خيل له، حتى انتهى إلى «مكة»، فساق إليه أموال أهل «تهامة»، من قريش» وغيرهم؛ وأصاب فيها مائتى بعير لـ «عبد المطلب بن هاشم» - وهو يومئذ كبير قريش» وسيدها -، فهمَّت «قريش» «وكنانة» و«هذيل» ومن كان بذلك الحرم من سائر الناس بقتاله، ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به فتركوا ذلك .

وبعث «أبرهة» «حناطة الحميرى» إلى «مكة» وقال له : سل عن سيد أهل هذا البلد وشريفهم، ثم قل له : إن الملك يقول إنى لم آت لحربكم . . . ! إنما جئت لهدم هذا البيت، فإن لم تعرضوا لنا دونه بحرب فلا حاجة لى بدمائكم، فإذ هو لم يُرِدْ حربى فائتنى به .

فلما دخل «حناطة» «مكة» سأل عن سيد قريش وشريفها، فقيل له «عبد المطلب بن هاشم» ..، فجاءه فقال له ما أمره به «أبرهة»، فقال له «عبد المطلب» : والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله «إبراهيم» - عليه السلام - فإن يمنعه منه فهو حرمه وبيته، وإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه . . !

فقال له «حناطة» : فانطلق معى إليه فإنه قد أمرنى أن آتيه بك؛

فانطلق معه «عبدالمطلبَ» ومعه بعض بنيه حتى أتى المعسكر، فسأل عن« ذى نفر» - وكان له صديقاً - حتى دخل عليه وهو فى مَحْبَسه، فقال له : يا «ذا نفر» هل عندك غناء فيما نزل بنا ؟ فقال له «ذو نفَرَ» : وما غناء رجل أسير بيدى ملك ينظر أن يقتله غدوا أو عشياً . . !؟ ما عندى غناء فى شىء مما نزل بك إلا أن «أنيساً» - سائس

الفيل - صديق لى ، فأرْسل إليه وأوصيه بك وأعظم عليه حقك ، وأسأله أن يستأذن لك على الملك فتكلمه فيما بدالك ، ويشفع لك عنده بخير إن قدر على ذلك؟ فقال «عبد المطلب» : حسبى ؛ فبعث «ذونفر» إلى «أنيس» فقال له : إن «عبد المطلب» سيد «قريش» وصاحب عين «مكة»، [1] يطعم الناس بالسهل والوحوش فى رؤوس الجبال ، وقد أصاب له الملك مائتى بعير ، فاستأذن له عليه وانفعه عنده بما استطعت ، قال : أفعل .

فكلم «أنيس» «أبرهة» فقال له : أيها الملك هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك ، وهو صاحب عين «مكة» ، وهو الذى يطعم الناس بالسهل والوحوش فى رؤوس بجبال ، فآئذن له عليك فيكلمك فى حاجته وأحسن إليه . . !

فأذن له «أبرهة» وكان «عبد المطلب» أوْسَمَ الناس وأعظمهم وأجملهم ، فلما رآه «أبرهة» أجله وأكرمه عن أن يجلسه تحته ، وكره أن تراه «الحبشة» يجلسه معه على سرير ملكه ؛ فنزل «أبرهة» عن سريره ، فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جانبه ، ثم قال لترجمانه : قل له ما حاجتك؟ . . . ، فقال : حاجتى أن يرد على الملك مائتى بعير أصابها لى . !

فلما قال له ذلك ، قال «أبرهة» لترجمانه : قُلْ له . . لقد كنت أعجبتنى حين رأيتك ، ثم قد زهدت فيك حين كلمتنى . . ، أتكلمنى

---

(١) فى «الطبرى» و«ابن هشام» و«الأزرقى» : صاحب عير «مكة» ؛ وهذا أصوب لاتساقه مع مضمون الكلام .

فى مائتى بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لأهدمه لا تكلمنى فيه ؟؟!! فقال له «عبد المطلب» : إنى أنا رب الإبل ، وإن للبيت رباً سيمنعه !!! ، فقال «أبرهة» : ما كان ليمتنع منى . . ! قال «عبد المطلب» : أنت وذاك . . !

فرد على «عبد المطلب» إبله .

وانصرف «عبد المطلب» إلى «قريش» فأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من «مكة» والتحرز فى رؤوس الجبال خوفاً عليهم من معرة الجيش .

ثم قام «عبد المطلب» فأخذ بحلقة باب «الكعبة» ، وقام معه نفر من «قريش» يدعون الله ويستنصرونه على «أبرهة» وجنده .

وقال «عبد المطلب» - وهو آخذ بحلقة باب «الكعبة» - :

لا هم (١) إن العَبْدَ يمنـ ع رحله فامنع رحالك

لا يغلبن صليبهم ومحا لهم عدواً محالك

إن كنت تاركهم وقبـ لتنا فأمر ما بدا لك

ثم أرسل «عبد المطلب» حلقة باب «الكعبة» وانطلق هو ومن معه من «قريش» إلى شعف (٢) الجبال يتحرزون فيها ينتظرون ما «أبرهة» فاعل .

فلما أصبح «أبرهة» تهيأ لدخول «مكة» وهيَّأ فيله وعبى جيشه ؛ وكان إسم الفيل «محموداً» ، فلما وجهوا الفيل إلى «مكة» أقبل «نفيل

---

(١) لاهم : اللهم .
(٢) شعف الجبال : قممها .

بن حبيب» حتى قام إلى جنب الفيل ثم أخذ بأذنه فقال : أبرك «محمود» وارجع راشداً من حيث أتيت ، فإنك فى بلد الله الحرام . . . ، وأرسل أذنه ، فَبَرَك الفيل (١) .

وخرج «نفيل بن حبيب» يشتد حتى أصعد فى الجبل ، وضربوا الفيل ليقوم فأبى ، فضربوا رأسه بالطبرزين (٢) ليقوم فأبى ، فادخلوا محاجن لهم فى مراقه فبزغوه بها ليقوم فأبى (٣) ، فوجهوه راجعاً إلى «اليمن» فقام يهرول . . . ، ووجهوه إلى الشام : ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى المشرق ففعل ذلك . . . ، ووجهوه إلى «مكة» فبرك .

وأرسل اللَّهُ عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان (٤) مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها ، حجر فى منقاره وحجران فى رجليه أمثال الحمص والعدس ، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك ، وليس كلهم أصابت . . . ، وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق التى جاؤوا منها ، ويسألون عن «نفيل بن حبيب» ليدلهم على الطريق إلى اليمن .

فقال «نفيل» فى ذلك :

ألا حييت عنا يا «ردينا» ... نعمنا كم مع الإصباح عينا

«ردينة» لو رأيت فلا تريه ... لدى جنب المحصَّب (٥) ما رأينا

---

(١) قال السهيلى : أى سقط إلى الأرض ، وليس من شأن الفيلة أن تبرك ؛ وقد قيل إن منها ما يبرك كالبعير ، والله أعلم .

(٢) الطبرزين : آلة معقفة من الحديد ، وطبر : كلمة فارسية معناها الفأس .

(٣) المحاجن : مفردها محجن ، كالصولجان ، ويزغوه : جرحوه وشرطوه .

(٤) البُلْسان : الزرازير .

(٥) المحصب : اسم مكان .

إذاً لعذرتني وحمدت أمري ولم تأسى على ما فات بينا
حمدت الله إذ أبصرت طيراً وخفت حجارة تلقى علينا
وكل القوم يسأل عن «نفيل» كَأَنَّ عليَّ للحبشان دينا

فخرجوا يتساقطون بكل طريق، ويتهالكون بكل مهلك، على كل منهل . . . ، وأصيب «أبرهة» في جسده وخرجوا به معهم يسقط أُنْمُلَةً أنملة . . . ، كلما سقطت أنملة اتبعتها من مدة تمت قيحاً ودماً حتى قدموا به «صنعاء» وهو مثل فَرْخ الطائر . . . فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه - فيما يزعمون) وقال «ابن إسحاق» :

(حدثني «يعقوب بن عتبة» (١) أنه حدث أن أول ما رؤيت الحصبة والجدرى بأرض العرب ذلك العام، وأنه أول ما رئى بها مرار الشجر الحرْمل والحنظل والعشر . . . ذلك العام (٢)) .

وفى التعليق على الواقعة والحدث العظيم، وما ذهب إليه بعض العلماء من تصورات حول الطيور الأبابيل والحجارة من سجيل، وظهور زمراض الحصبة والجدرى لأول مرة فى زرض العرب . . . ! يقول المرحوم «سيد قطب» فى «الظلال» (٣) : (إن سنة الله ليست فقط هى ما عهده البشر وما عرفوه - وما يعرف البشر من سنة الله إلا طرفاً يسيراً يكشفه الله لهم بمقدار ما يطيقون، وبمقدار ما يتهيأون له

(١) هو : «يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس الثقفى» -المدنى- كما فى أخبار «الأزرقى»، وكان فقيهاً عالماً بالسيرة، توفى عام (١٢٨) هـ .
(٢) الحرمل : شجر لا يأكله إلا الماعز والعشر : شجر مر له صمغ ولبن وتعالج بلبنه الجلود قبل دباغتها .
(٣) (ج : ٦) (ص : ٣٩٧٧) .

بتجاربهم ومداركهم فى الزمن الطويل - فهذه الخوارق - كما يسمونها - هى من سنة الله ، ولكنها خوارق بالقياس إلى ما عهدوه وعرفوه .

ومن ثم فنحن لا نقف أمام الخارقة مترددين ولا مؤولين - متى صحت الرواية - أو كان فى النصوص وفى ملابسات الحادث ما يوحى بأنها جرت خارقة ، ولم تجر على مألوف الناس ومعهودهم؛ وفى الوقت ذاته لا نرى أن جريان الأثر على السنة المألوفة أقل وقعاً ولا دلالة من جريانه على السنة الخارقة للمألوف . . ، فالسنة المألوفة فى حقيقتها خارقة بالقياس إلى قدرة البشر . . ، إن طلوع الشمس وغروبها خارقة - وهى معهودة كل يوم - وإن ولادة كل طفل خارقة ، وهى تقع فى كل لحظة ، وإلا فيجرب من شاء أن يجرب . . ! وإن تسليط طير - كائناً ما كان - يحمل حجارة مسمومة ملوثة بميكروبات الجدرى والحصبة وإلقائها فى هذه الأرض ، فى هذا الأوان ، واحداث هذا الوباء فى الجيش ، فى اللحظة التى يهم فيها باقتحام «البيت» . . ، إن جريان قدر الله على هذا النحو خارقة ، بل عدة خوارق كاملة الدلالة على القدرة والتقدير . . ، وليست بأقل دلالة ولا عظمة من أن يرسل الله طيراً خاصاً . . يحمل حجارة خاصة . . . تفعل بالأجسام فعلاً خاصاً . . . فى اللحظة المقررة . . ! هذه من تلك ، هذه خارقة وتلك خارقة على السواء .

فأما فى هذا الحادث بالذات ، فنحن أميْل إلى اعتبار أن الأمر جرى على أساس الخارقة غير المعهودة ، وأن الله أرسل طيراً أبابيل غير

معهودة، وإن لم تكن هناك حاجة إلى قبول الروايات التى تصف أحجام الطير وأشكالها وصفاً مثيراً، نجد له نظائر فى مواضع أخرى تشى بأن عنصر المبالغة والتهويل مضافاً إليها، تحمل حجارة غير معهودة، تفعل بالأجسام فعلاً غير معهود .

نحن أَمْيل إلى هذا الاعتبار، لا لأنه أعظم دلالة ولا أكبر حقيقة، ولكن لأن جو السورة وملابسات الحادث تجعل هذا الاعتبار هو الأقرب .

فقد كان الله – سبحانه – يريد بهذا البيت أمراً . . ، كان يريد أن يحفظه ليكون مثابةً للناس وأمناً، وليكون نقطة تجمع للعقيدة الجديدة تزحف منه حرة طليقة، فى أرض حرة طليقة، لا يهيمن عليها أحد من خارجها، ولا تسيطر عليها حكومة قاهرة تحاصر الدعوة فى محضنها، ويجعل هذا الحادث عبرة ظاهرة مكشوفة لجميع الأنظار . . . فى جميع الأجيال، حتى ليمتن بها على «قريش» بعد البعثة بهذه السورة ويضربها مثلاً لرعاية الله لحرماته وغيرته عليها . . ، فمما يتناسق مع جو هذه الملابسات كلها أن يجىء الحادث غير مألوف ولا معهود، بكل مقوماته وبكل أجزائه، ولا داعى للمحاولة فى تغليب صورة المألوف من الأمر فى حادث هو فى ذاته وملابساته مفـرد فذ . . .) ! – هـ .

ونحن لنا تعليق . . ! مع توافقنا فى الرأى والاستنتاج فيما ذهب إليه صاحب «الظلال» – عليه من الله تعالى الرحمة والرضوان – ، فنقول بأن الدعوة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام – ليست عقيدة جديدة، ولكنَّها تواصل مطرد مع التوحيد الذى أرسل به

الأنبياء والرسل جميعاً . . . ، خصوصاً مع «إبراهيم» - عليه السلام - الذى رفع القواعد من البيت العتيق . . . ، والذى أراد «أبرهة» هدمه ، والقضاء عليه ، تغليباً لنزعة الشرك التى كان يعتقدها ! !

وأيضاً لنا تساؤل : لماذا لم يقض الله تعالى على «أبرهة» وجيشه فى بدء الطريق ، أو أثنائها وقد كانت نواياه واضحة المعالم؟ بل تركه فى زهوه وجبروته حتى يبلغ البيت الحرام ! !

لقد كان الحدث سبباً أو سبيلاً لإيقاظ نفوس العرب - من قريش وغيرها - وتنبيهاً لهم من غفلتهم التى عصفت بعقولهم ردحاً طويلاً من الزمن فأشركوا ، وجعلوا لله أنداداً من الأوثان والأصنام ، حتى إنهم شوهوا ظاهر البيت وباطنه بالنصب . . !

وأيضاً . . . تمهيداً للإيمان بالرسول الخاتم - ﷺ - ، يقوِّم السبيل ، ويهدى إلى صراط مستقيم ؛ ويخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم .

ويستوقفنا التسلسل الرائع المعجز بين سورتى «الفيل» و«قريش» . . . والتتابع المنطقى والتاريخى . . . ، والترتيب التوقيفى عن رسول الله « ﷺ » عن «جبريل» - عليه السلام - عن رب العزة - سبحانه وتعالى . . ! والذى أهلك «أبرهة» وجيشه بحجارة من سجيل ، وهو الذى هيأ لـ «قريش» أسباب المعاش ، وأمنها من خوف . . !

والواقعة كانت - ومازالت - من الإرهاصات الكبرى بميلاد رسول الله « ﷺ » ، ونبوته ، ذلك لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ! ! .

١٣- من الولادة إلى النبوة

(أ) حديث «حليمة» المرضعة

كان من عادة اشراف العرب أن يسترضعوا لأبنائهم فى البادية لينشطوا ويقوموا فى بيئة صافية نقية، هوأؤها عليل وماؤها سلسبيل، ولقد اجتمعت رغبة «عبد المطلب» و«آمنة» على استرضاعه «ص» فى البادية، وكان من كرامة الله تعالى لـ «حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية» أن تشرف برضاعه « ﷺ ».

ولنستمع إلى حديثها عن ذلك. . ، فإن فيه من الإرهاصات الشيء الكثير !!

روى «ابن إسحاق» عن «عبد الله بن جعفر بن أبى طالب» قال: حدثت عن «حليمة» أنها قالت:

(قدمت «مكة» فى نسوة من «بنى سعد» نلتمس الرضعاء، فى سنة شهباء، [١] فقدمت على أتان [٢] لى قمراء، قد أذمَّت [٣] بالركب، ومعى صبى [٤] لى وشارف [٥] لنا . . والله ما تبض بقطرة [٦]، وما نام ليلنا أجمع من صبيِّنا . . . ذاك ما نجد فى ثديى ما يغنيه، ولا فى شاتنا ما يغذيه، ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج . . . ، فخرجت على أتانى تلك، فلقد أذمَّت بالركب . . حتى شق ذلك عليهم ضعفاً وعجزاً.

---

(١) شهباء: جدباء. (٢) الأتان: أنثى الحمار. (٣) أذمَّت: أطالت.
(٤) إسمه: عبد الله. (٥) الشارف: أنثى الماعز.
(٦) أى ليس فى ضرعها لبن.

فقدمنا «مكة» فو الله ما علمت منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله « ﷺ » فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم . . . تركناه ، قلنا ماذاعسى أن تصنع إلينا أمه؟ إنما نرجو المعروف من أبى الولد، فأما أمه فما داعى أن تصنع إلينا، فو الله ما بقى من صواحبى امرأة إلا أخذت رضيعاً . . . غيرى !!

فلما لم نجد غيره وأجمعنا الانطلاق قلت لزوجي «الحارث - بن عبد العزى» والله إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ليس معى رضيع . . ، لأنطلقن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه . ! فقال : لا عليك أن تفعلى، فعسى أن يجعل الله لنا فيه بركة .

فذهبت فأخذته . . . ، فو الله ما أخذته إلا أنى لم أجد غيره، فما هو إلا أن أخذته فجئت به رحلى فأقبل عليه ثدياى بما شاء من لبنٍ، فشرب حتى روى وشرب أخوه حتى روى؛ وقام صاحبى (زوجى) إلى شارفنا فإذا إنها لحافل، فحلب ما شرب وشربت حتى روينا، فبتنا بخير ليلة .

فقال صاحبى حين أصبحنا : يا «حليمة» . . . والله إنى لأراك قد أخذت نسمة مباركة، ألم تريْ ما بتنا به الليلة فى الخير والبركة حين أخذناه، فلم يزل الله يزيدنا خيراً .

ثم خرجنا راجعين إلى بلادنا، فو الله لقطعت أتانى بالركب حتى ما يتعلق بها حمار، حتى إن صواحبى ليقلن : ويلك يا «بنت أبى ذؤيب» هذه أتانك التى خرجت عليها معنا ؟!!

فأقول : نعم، والله إنها لهى، فقلن : والله إن لها لشأناً، حتى قدمنا أرض «بنى سعد» ؛ وما أعلم أرضا من أرض الله أجدب منها، فإن كانت غنمى لتسرح ثم تروح شباعاً لبناً، فنحلب ما شئنا، وما حوالينا أو حولنا أحد تبض له شاة بقطرة لبن، وإن أغنامهم لتروح جياعاً حتى إنهم ليقولون لرعيانهم : ويْحكم انظروا حيث تسرح غنم «بنت أبى ذؤيب» فاسرحوا معهم، فيسرحون مع غنمى حيث تسرح، فتروح أغنامهم جياعاً ما فيها قطرة لبن، وتروح أغنامى شباعاً لبناً، نحلب ما نشاء .

فلم يزل الله يرينا البركة نتعرفها حتى بلغ سنتين . . . ، فكان يشب شباباً لا تشبه الغلمان . . . ، فو الله ما بلغ السنتين حتى كان غلاماً جفراً [1] .

فقدمنا به على أمه ونحن أضن شىء به، مما رأينا فيه من البركة . . . ، فلما رأته أمه قلت لها : دعينا نرجع بابننا هذه السنة الأخرى، فإنا نخشى عليه وباء «مكة» . . . ، فو الله مازلنا بها حتى قالت : نعم؛ فَسَرَّحتْهُ معنا، فأقمنا به شهرين أو ثلاثة . . !

فبينما هو خلف بيوتنا مع أخ له من الرضاعة فى بهم لنا جاء أخوه ذلك يشتد [2] . . ! فقال : ذاك أخى القرشى جاءه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه . . !

---

(١) الجفر : القوىُّ الغليظ .

(٢) البُهْم : البهائم؛ ويشتد : يركض .

فخرجت أنا وأبوه نشتد نحو ، فنجده قائماً منتقعاً لونه ، فاعتنقه أبوه وقال : يا بنى ما شأنك ؟؟ قال : جاء بى رجلان عليهما ثياب بيض ، وأضجعانى وشقا بطنى ، ثم استخرجا منه شيئاً فطرحاه ، ثم رداه كما كان .

فرجعنا به معنا ، فقال أبوه : يا «جليمة» لقد خشيت أن يكون إبنى قد أصيب ، فانطلقى بنا نرده إلى أهله قبل أن يظهر به ما نتخوف!

فاحتملناه . . ، فلم ترع أمه إلا به ، فقدمنا به عليها فقالت : ماردكما به يا ظئر [1]؟! فقد كنتما عليه حريصين !! فقلنا : لا والله . . إلا أن الله قد أدى عنا ، وقضينا الذى علينا ، وقلنا نخشى الإتلاف والأحداث . . . نرده إلى أهله .

فقالت : ماذاك بكما . . ! فأصدقانى شأنكما . . !

فلم تدعنا حتى أخبرناها خبره ، فقالت : أخشيتما عليه الشيطان !؟ كلا والله ما للشيطان عليه من سبيل؛ والله إنه لكائن لابنى هذا شأن . . ! ألا أخبركما خبره؟ قلنا : بلى ، قالت : حملت به فما حملت حملاً قط أخف على منه ، فأريت فى النوم حين حملت به كأنه خرج منى نور أضاءت له قصور الشام ، ثم وقع حين ولدته وقوعاً ما يقعه المولود ، معتمداً على يديه ، رافعاً رأسه إلى السماء . . . ! فدعاه عنكما . . !

---

(١) الظئر : المرضع .

(ب) المظلل بالغمام

خرجت «حليمة» يوماً تتفقد سرحها، وتطلب أولادها الرعاة، فى حرقائظ، وشمس لافحة، فوجدت البهائم تقيل، فعاقبت ابنتها قائلة : أفى هذا الحر ؟ ألا تخافين على نفسك وأخيك «محمد» ؟؟ فقالت الإبنة : يا أمه . . . ما وجد أخى حراً . . . رأيت غمامة تظلل عليه، إذا وقف وقفت، وإذا سار سارت، حتى انتهينا إلى هذا الموضع !!

ولقد كانت هذه الغمامة مبعث اهتمام «بحيرا» الراهب بركب «قريش» وقافلتهم، حين نزلوا قريباً من صومعته فى «بصرى»، من أرض «حوارن» (سيأتى الحديث عن ذلك إن شاء الله تعالى) .

وفى «المدينة المنورة» مسجد يعرف بـ «مسجد الغمامة» (١) يقع فى الطرف الجنوبى الغربى من الحرم النبوى الشريف .

والحديث عن الغمامة متواتر قد أثبته كل من كتب فى السيرة المطهرة، كإحدى الدلائل والإرهاصات، لا يرقى إليها أدنى شك أو ارتياب ؛

(ج) خاتم النبوة

وكان بين كتفيه « ﷺ » . . ! وهو عبارة عن شعرات متواترات كأنهن عرف فرس . . !

---

(١) ويعرف أيضاً بـ «مسجد العيد»، فقد صلى رسول الله «ص» فيه أول عيد فى العام الثانى للهجرة، ولم يكن فيه بناء، وكان أرضاً فضاءً، ومن هنا كانت السنّة فى صلاة العيد .

بهذا تحدث كل من رآها .

وقال بعضهم بأن الشعرات كن مجتمعات كأنهن بيضة حمام .

يأتلقن نوراً وبهاءً وحسناً . . !

ولا بأس علينا من إعادة ما رواه «هشام بن عروة بن الزبير بن العوام» عن أبيه، عن «عائشة» - رضى الله عنها - قالت :

[كان يهودى قد سكن «مكة» يتجر بها، فلما كانت الليلة التى ولد فيها رسول الله « ﷺ » قال فى مجلس من «قريش» : يا معشر قريش هل ولد فيكم الليلة مولود ؟ فقال القوم : والله ما نعلمه . . . ! ؟ فقال : الله أكبر، أما إذا أخطأكم فلا بأس ؛ انظروا واحفظوا ما أقول لكم : ولد هذه الليلة نبى هذه الأمة الأخيرة، بين كتفيه علامة، فيها شعرات متواترات كأنهن عرف فرس، لا يرضع ليلتين . . وذلك أن عفريتاً من الجن أدخل أصبعه فى فمه منعه الرضاع .

فتصدع القوم من مجلسهم وهم يتعجبون من قوله وحديثه، فلما صاروا إلى منازلهم أخبر كل إنسان أهله، فقالوا قد ولد - والله - ولد لـ «عبد الله بن عبد المطلب» غلام سموه «محمداً» .

فالتقى القوم فقالوا : هل سمعتم حديث اليهودى ؟ وهل بلغكم مولد هذا الغلام؟ فانطلقوا حتى أتوا اليهودى وأخبروه الخبر .

قال : فاذهبوا معى حتى أنظر إليه . . . ، فخرجوا به حتى أدخلوه على «آمنة» فقالوا : أخرجى إلينا ابنك، فأخرجته وكشفوا له عن ظهره، فرأى تلك الشامة، فوقع اليهودى مغشياً عليه . . ، فلما أفاق

قالوا له : ما لك ويلك؟ قال : قد ذهبت - والله - النبوة من «بنى إسرائيل» ، فرحتم بها يا معشر «قريش» ، والله ليسطون بكم سطوة يخرج خبرها من المشرق والمغرب] .

وأحبار اليهود يعرفون ويعلمون ذلك ، كابراً عن كابر . . ! ولكنهم كما قال عنهم «عبد الله بن سلام» - رضى الله عنه - حين أسلم بأنهم قوم بُهْتٌ . . ! قال تعالى فى سورة «الأعراف» : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

[الآية : ١٥٧]

(د) «بحيرا» (١) الراهب

قال «ابن إسحاق» (٢) :

(ثم إن «أبا طالب» خرج فى ركب تاجراً إلى الشام ، فلما تهيأ للرحيل وأجمع السير صب (٣) به رسول الله « ﷺ » فرق له «أبو طالب» وقال : والله لأخرجن به معى ولا أفارقه ولا يفارقنى أبداً . . ، فخرج به .

---

(١) اختلف فى رسم الإسم ولفظه ، فقال بعضهم «بَحيرا» - بفتح الباء - و قال بعضهم «بُحيرا» بضمها ، ورسمها بعضهم بمد الألف ، كما رسمها آخرون بالقصر (بحيرى) .

(٢) (البداية والنهاية) (ج : ٢) (ص : ٣٤٥) .

(٣) صب : تعلق وتشبث .

فلمـا نزل الركب «بصـرى» من أرض الشـام وبهـا راهب يقـال له «بحيرا» فى صومعة لـه - وكان إليه علم النصرانية - ولم يزل فى تلك الصومعة منذ قط راهب فيها، إليه يصير علمهم عن كتاب، فيما يزعمون، يتوارثونه كابراً عن كابر ، فلما نزلوا ذلك العام بـ«بحيرا» - وكانوا كثيراً ما يمرون به فلا يكلمهم ولا يعرض لهم - حتى كان ذلك العام .

فلما نزلوا قريباً من صومعته صنع لهم طعاماً كثيراً - وذلك فيما يزعمون عن شيء رآه وهو فى صومعته - يزعمون أنه رأى رسول الله « ﷺ » فى الركب حتى أقبل وغمامة تظلله من بين القوم .

ثم أقبلوا فنزلوا فى ظل شجرة قريباً منه، فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة وتهصرت (١) أغصان الشجرة عن رسول الله «ص» حتى استظل تحتها؛ فلما رأى ذلك «بحيرا» نزل من صومعته، وقد أمر بطعام فصنع؛ ثم أرسل إليهم فقال : إنى صنعت لكم طعاماص يا معشر قريش، فأنا أحب أن تحضروا كلكم ، كبيركم وصغيركم، وعبْدكم وحُرَّكم، فقال له رجل منهم : والله يا «بحيرا» إن لك لشأن اليوم . . ! ما كنت تصنع هذا بنا، وقد كنا نمر بك كثيراً !!! فما شأنك اليوم ؟؟

قال له «بحيرا» : صدقت . . . قد كان ما تقول، ولكنكم ضيف وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاماً فتأكلون منه كلكم .

---

(١) تهصرت : مالت وتدلت .

فاجتمعوا إليه، وتخلف رسول الله « ﷺ » من بين القوم لحداثة سنه فى رجال القوم، تحت الشجرة، فلما رآهم «بحيرا» لم ير الصفة التى يعرف ويجده عنده، فقال : يا معشر «قريش» لا يتخلفن أحد منكم عن طعامى . . . ، قالوا : يا «بحيرا» ما تخلف أحد ينبغى له أن يأتيك إلا غلام، وهو أحدثنا سناً، فتخلف فى رحالنا . . . ، قال : لا تفعلوا . . أدعوه فليحضر هذا الطعام معكم .

فقال رجل من قريش مع القوم : واللات والعزى إن كان للؤم بنا أن يتخلف «محمد بن عبد الله بن عبد المطلب» عن طعام من بيننا . . . ، ثم قام إليه فاحتضنه وأجلسه مع القوم .

فلما رآه «بحيرا» جعل يلحظه لحظاً شديداً وينظر إلى أشياء فى جسده، قد كان يجدها عنده من صفته، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا ، قام إليه بحيرا وقال له : يا غلام . . . أسألك بحق اللات والعزى (١) إلا أخبرتنى عما أسألك عنه - (وإنما قال له «بحيرا» ذلك لأنه سمع القوم يحلفون بهما (٢) فقال له رسول الله « ﷺ » : [لا تسألنى بـ «اللات» و«العزى» شيئاً، فو الله ما أبغضت شيئاً قط بغضهما] : فقال له «بحيرا» : فبالله إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه؟ فقال له : [سلنى عما بدا لك]؛ فجعل يسأله عن أشياء من حاله، من قومه وهيأته وأموره، فجعل رسول الله « ﷺ » يخبره؛ فوافق ذلك ما عند «بحيرا» فى صفته .

---

(١) يروى أنه كان «ص» فى الثانية عشرة من عمره الشريف .
(٢) ويقال بأنه سأله بهما اختباراً .

ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه، موضعه من صفته التى عنده؛ فلما فرغ أقبل على عمه «أبى طالب» فقال له : ما هذا الغلام منك؟ قلا : إبنى ؛ قال «بحيرا» : ما هو بابنك . . ، وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً . . ! قال : إنه ابن أخى . . ، قال : فما فعل أبوه؟ قال : مات وأمه حُبلى به؛ قال : صدقت . . . ، إرجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود !!! فو الله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شراً ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم، فأسرع به إلى بلاده .

فخرج به عمه «أبو طالب» سريعاً حتى أقدمه «مكة»، حين فرغ من تجارته بالشام) إ – هـ .

(١٤) الصادق الأمين

تلكم كانت الشهرة التى رافقت سيدنا رسول الله « ﷺ » منذ صباه وفتوته، ثم شبابه ورجولته، وعرف بها لدى القاصى والدّانى من «قريش» كلها .

ولابد من الحديث عن تلك المراحل، ففى ثناياها من الأحداث والوقائع ما يحمل الإرهاصات بنبوته «ص» فبعد أن عادت به مرضعته «حليمة السعدية»، إلى أمه «آمنة بنت وهب» – وقد بلغ من العمر أربع سنوات – مكث «ص» سنتين فى رعاية الأم «آمنة»، وجده «عبد المطلب» الذى لم يكن ليفارقه فى ليلٍ أو نهار، يحنو عليه ويرعاه، ويعوضه فقدان الأب الذى لم يره .

وحين بلغ السنوات الست أرادت مه أن تذهب به إلى «يثرب» – المدينة – لتزيره أخواله [1] من «بنى النجار»، فاستأذنت جده «عبد المطلب» فأذن لها .

ومن المشهور المعلوم أنها وهى فى طريق العودة إلى «مكة» توفيت فى مكان يعرف بـ «الأبواء»؛ ودفنت هناك؛ وكان برفقتها جارية صغيرة السن إسمها «بركة الحبشية»، تقوم بخدمتها؛ وقد عرفت من بعد بكنيتها : «أم أيمن» وبالاطلاع على رواية «أم أيمن» لواقعة الوفاة تبين الظروف وبعض التفاصيل، ومن خلالها ندرك – أيضاً – أن إرهاصات النبوة كانت علامة فارقة . . !

---

(١) أخوال أبيه «عبد الله» .

فقد ذكر «الواقدى» بأسانيده : (أن النبى « ﷺ » خرجت به أمه إلى «المدينة» ومعها «أم أيمن»، وله ست سنين، فزارت أخواله؛ قالت «أم أيمن» : فجاءنى ذات يوم رجلان من يهود «المدينة» فقالا لى : أخرجى إلينا «أحمد» ننظر إليه، فنظرا إليه وقلباه . . ، فقال أحدهما لصاحبه : هذا نبى هذه الأمة وهذه دار هجرته، وسيكون بها من القتل والسبى أمر عظيم .

فلما سمعت أمه خافت وانصرفت به، فماتت بـ «الأبواء» وهى راجعة) .

وانتقلت الولاية والحضانة من «آمنة» إلى «عبد المطلب» . . . ، وازداد «عبد المطلب» حناناً وحباً وإشفاقاً على الطفل اليتيم بعد فقد الأبوين .

يقول «ابن اسحاق» :

(وكان رسول الله « ﷺ » مع جده «عبد المطلب بن هاشم» - بعد موت أمه «آمنة بنت وهب»، فكان يوضع لـ «عبد المطلب» فراش فى ظل «الكعبة»، وكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليهم، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له .

فكان رسول الله « ﷺ » يأتى - وهو غلام جفر - حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامُهُ ليؤخروه عنه، فيقول «عبد المطلب» - إذا رأى ذلك منهم - : دعوا إبنى . . . فو الله إن له لشأناً، ثم يجلسه معه على فراشه ويمسح ظهره بيده، ويسره ما يراه يصنع .

وقال «الواقدى» فى رواية عن أكثر من واحد، [1] دخل حديث بعضهم فى بعض، قالوا :

(كان رسول الله « ﷺ » يكون مع أمه «آمنة بنت وهب» فلما توفيت قبضه إليه جده «عبد المطلب» وضمه، ورق عليه رقة لم يرقها على ولده، وكان يقربه منه ويدنيه، ويدخل عليه إذا خلا وإذا نام، وكان يجلس على فراشه، فيقول «عبد المطلب» إذا رأى ذلك : دعوا إبنى . . . إنه ليؤنس ملكاً) .

(وقال قوم من بنِى مدلجٍ لـ «عبد المطلب» : إحتفظ به . . . فإنا لم نر قدماً أشبه بالقدم الذى فى المقام [2]، فقال «عبد المطلب» لـ «أبى طالب» : إسمع ما يقول هؤلاء . . ! فكان «أبو طالب» يحتفظ به .

وقال «عبد المطلب» لـ «أم أيمن» - وكانت تحضنه - : يا «بركة» لا تغفلى عن ابنى، فإنى وجدته مع غلمان قريب من السدرة، وإن أهل الكتاب يزعمون أن ابنى نبى هذه الأمة .

وكان «عبد المطلب» لا يأكل طعاماً إلا يقول : علىَّ بابنى . . . ، فيؤتى به إليه؛ فلما حضرت «عبد المطلب» الوفاة أوصى «أبا طالب» بحفظ رسول الله « ﷺ » وحياطته، ثم مات «عبد المطلب» ودفن بـ «الحجون» [3]) .

وفى كفالة «أبى طالب» لرسول الله « ﷺ » ورعايته له وحبه إياه، وحدبه عليه، ودفاعه عنه - بعد البعث والنبوة -، فقد كانت مادة

---

(١) (المنذر بن جهم) و(مجاهد) و(أبو الحويرث) و(ابن جُبَيْر) .

(٢) يعنون قدم «إبراهيم» - عليه السلام - ٣ - مقابر أهل «مكة» .

عريضة واسعة تحدثت عنها المراجع بمصداقية، وأوسعتها ذكراً.

والذى يهمنا هنا ما كان من إرهاصات ودلائل رافقت تلك الفترة.

يقول «ابن إسحاق» (١) :

(وكان رسول الله « ﷺ » بعد جده «عبد المطلب» مع عمه «أبى طالب» لوصية «عبد المطلب» به، ولأنه كان شقيق أخيه «عبد الله» أمهما «فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم».

فكان «أبو طالب» هو الذى يلى أمر رسول الله « ﷺ » - بعد جده -، وكان إليه ومعه).

و«الواقدى» رواية عن «ابن عباس» وعن «مجاهد» و «إسماعيل بن أبى حبيبة» [دخل حديث بعضهم فى بعض] قالوا :

(لما توفى «عبد المطلب» قبض «أبو طالب» رسول الله « ﷺ » فكان يكون معه، وكان «أبو طالب» لا مال له، وكان يحبه حباً شديداً لا يحبه ولده، وكان لا ينام إلا إلى جنبه، ويخرج فيخرج معه، وصب به «أبو طالب» صبابة لم يصب مثلها بشىء قط؛ وكان يخصه بالطعام... وكان إذا أكل عيال «أبى طالب» جميعاً أو فرادى لم يشبعوا، وإذ أكل معهم رسول الله « ﷺ » شبعوا !!!

فكان إذا أراد أن يُغَدِّيهم قال : كما أنتم حتى يأتى ولدى، فيأتى رسول الله «ص» فيأكل معهم، فكانوا يفضلون من طعامهم، وإن لم يكن معهم لم يشبعوا، فيقول «أبو طالب» : إنك لمبارك؛ وكان

---

(١) (البداية والنهاية) (ج : ٢) (ص : ٣٤٤).

الصبيان يصبحون رمصاً شعثاً، ويصبح رسول الله « ﷺ » دهيناً كحيلاً) (١) .

وروى «الحسن بن عرفة» عن «عطاء بن أبى رباح» عن «ابن عباس» - رضى الله عنهما - أنه كان يقول :

(كان «بنو أبى طالب» يصبحون رمصاً عمصاً، ويصبح رسول الله « ﷺ » صقيلاً دهيناً . . ، وكان «أبو طالب» يقرب إلى الصبيان صفحتهم أول الباكرة، فيجلسون وينتهبون ويكف رسول الله « ﷺ » يده فلا ينتهب معهم، فلما رأى ذلك عمه عزل له طعامه على حده) .

وروى «ابن إسحاق» عن «عبّاد بن عبد الله بن الزبير» :

(أن رجلاً من «بنى لهب» (٢) كان عائفاً (٣)، فكان إذ أقدم «مكة» أتاه رجال من «قريش» بغلمانهم ينظر إليهم ويعتاف لهم منهم؛

فأتى «أبو طالب» برسول الله « ﷺ » - وهو غلام - مع من يأتيه، فنظر إلى رسول الله « ﷺ »، ثم شغله عنه شىء، فلما فرغ قال : الغلام . . . على به !! فلما رأى «أبو طالب» حرصه عليه غيبه عنه، فجعل يقول : ويلكم ردوا على الغلام الذى رأيته آنفاً، فو الله ليكونن له شأن . . .) .

---

(١) روى ذلك «ابن سعد» فى «الطبقات» (ج : ١) (ص : ١١٩) والرمص : وسخ يجتمع فى موق العين .

(٢) بنو لهب : من (أزد شنوءة) .

(٣) العائف : هو الذى يتفرس فى خلقه الإنسان فيخبره بما يؤول إليه حاله .

ولقد كان فى بيت «أبى طالب» سيدة فاضلة، هى زوجته «فاطمة بنت أسد»، ولم تكن أقل رعاية واعتناءً برسول الله « ﷺ » من زوجها؛ لذا أثر عن رسول الله « ﷺ » أنه كفنها يوم وفاتها بقميصه، وقال : [«لم ألق بعد «أبى طالب» أبر بى منها»] (١) .

وكان « ﷺ » يقول عنها : [«هى أمى بعد أمى»] .

وقال «محمد بن إسحاق» (٢) :

(فشب رسول الله « ﷺ » يكلؤه الله ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية، ما يريد من كرامته ورسالته، حتى بلغ أن كان رجلاً، أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً، وأكرمهم حسباً، وأحسنهم جواراً، وأعظمهم حلماً، وأصدقهم حديثاً، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التى تدنس الرجال تكرماً وتنزهاً، حتى ما إسمه فى قومه إلا [الأمين]، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة.

وكان رسول الله « ﷺ » - فيما ذكر لى - يحدث عما كان الله يحفظه به فى صغره وأمر جاهليته أنه قال : [«لقد رأيتنى فى غلمان «قريش» ننقل الحجارة لبعض ما يلعب الغلمان، كلنا قد تعرى، وأخذ إزاره وجعله على رقبته، يحمل عليه الحجارة، فإنى لأقبل معهم كذلك وأدبر، إذ لكمنى لاكم، ما أراه لكمة وجيعة، ثم قال : شد عليك إزارك . . . ، فأخذته فشددته علىَّ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتى، وإزارى على من بين أصحابى»] .

---

(١) كانت قد أسلمت وهاجرت وتوفيت فى المدينة .
(٢) (البداية والنهاية) (ج : ٢) (ص : ٣٤٩) .

وروى الإمام «البيهقى» (١) عن «محمد بن إسحاق» . . . عن «الحسن بن محمد بن على بن أبى طالب» - عن «على» - كرم الله وجه -، قال : [سمعت رسول الله « ﷺ » يقول : «ما محمد بشىء مما كان أهل الجاهلية يهمون به من الفساد إلا ليلتين، كلتاهما عصمنى الله عز وجل فيهما؛ قلت ليلة لبعض فتيان «مكة» - ونحن فى رعاء غنم أهلها - : أبصر لى غنمى حتى أدخل «مكة» فأسمر فيها كما يسمر الفتيان . . . فقال : بلى، فدخلت حتى جئت أول دار من دور «مكة»، سمعت عزفاً بالغرابيل والمزامير، فقلت : ما هذا !!؟ قالوا : تزوج فلان فلانه .

فجلست أنظر . . .، وضرب الله على أذنى، فو الله ما أيقظنى إلا مس الشمس . . ! فرجعت إلى صاحبى، فقال : ما فعلت ؟ فقلت : ما فعلت شيئاً ، ثم أخبرته بالذى رأيت .

ثم قلت له ليلة أخرى : أبصر لى غنمى حتى أسمر بـ «مكة»، ففعل . فدخلت . . .، فلما جئت «مكة»، سمعت مثل الذى سمعت تلك الليلة، فسألت، فقيل : نكح فلان فلانة، فجلست أنظر، وضرب الله على أذنى، فو الله ما أيقظنى إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبى، فقال : ما فعلت ؟ فقلت : لا شىء، ثم أخبرته الخبر .

فو الله ما هممت ولا عدت بعدها لشىء من ذلك، حتى أكرمنى الله عز وجل»] (٢) .

---

(١) (ج: ٢) (ص: ٣٣).

(٢) روى الخبر «السيوطى» فى الخصائص الكبرى (١ - ٨٩) وأبو نعيم فى الدلائل (١٤٣) وسبل الهدى (٢ - ١٩٩) .

(١٥) المكانة فى «قريش»

ومع تكامل نموه « ﷺ » - كانت تتابع آيات الله تعالى فى دلائل نبوته وإرهاصات بعثته، ويزداد - فى «قريش» عامة و«بنى هاشم» خاصة - رفعةً وعلو مقام واحتراماً، وكان لقبا «الصادق» و«الأمين» علمان له، بالإضافة إلى اسمه الشريف «محمد بن عبد الله» - صلوات الله وسلامه عليه - .

ومن أبرز ما تحدثت به الأسفار، وتواترت الأنباء والمصادر بنقله، ما كان من أمر قريش يوم أرادت إعادة بناء «الكعبة الشريفة»؛ وقد هدمت جوانبها السهول، ولولا حكمة رسول الله «ص» فى حسم النزاع بين بطون «قريش» لسفكت الدماء وأزهقت الأرواح .

وقبل الحديث عن ذلك، نعرض لزواجه « ﷺ » من «خديجة» - رضى الله عنها -، لأنها سابقة، ولأنها عند الكثيرين ممن كتبوا فى السيرة المطهرة، أو رووا فيها، أو بحثوا . . . ، يتقفون عند إعجاب «خديجة» برسول الله « ﷺ » من خلال ما درت عليها تجارتها التى اضطلع بها «ص» من أرباح وأموال، بسبب أمانته وصدقه، وحسن تعامله . . ! ولا يعولون إلا قليلاً على ما حدثها به غلامها «ميسرة» - وكيل أعمالها - من إرهاصات سمعها أو شاهدها .

قال «ابن إسحاق» :

(وكانت «خديجة بنت خويلد» امرأة تاجرة، ذات شرف ومال [١]، تستأجر الرجال على مالها مضاربة [٢]، فلما بلغها عن

---

(١) كانت قد سبق لها الزواج مرتين، وتوفى زوجاها، وورثت عنهما مالاً كثيراً .

(٢) المضاربة : المقارضة، المال منها والعمل فى الرجال، ولهم نصيب من الأرباح .

رسول الله « ﷺ » ما بلغها من صدق حديثه وعظيم أمانته، وكرم أخلاقه، بعثت إليه، فعرضت عليه أن يخرج لها فى مال تاجراً إلى الشام وتعطيه أفضل ما تعطى غيره من التجار، مع غلام لها يقال له «ميسرة»؛ فقبله رسول الله « ﷺ » منها، وخرج فى مالها ذلك، وخرج معه غلامها «ميسرة» حتى نزل الشام .

فنزل رسول الله « ﷺ » فى ظل شجرة قريباً من صومعة راهب من الرهبان (١) ، فاطلع الراهب إلى «ميسرة» فقال : من هذا الرجل الذى نزل تحت الشجرة ؟ فقال «ميسرة» : هذا رجل من «قريش» من أهل الحرم، فقال له الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبى . . !

ثم باع رسول الله « ﷺ » سلعته (تجارته) التى خرج بها واشترى ما أراد أن يشترى، ثم أقبل قافلاً إلى «مكة» ومعه «ميسرة»، فكان «ميسرة» - فيما يزعمون - إذا كانت الهاجرة واشتد الحر، يرى ملكين يظلاّنه « ﷺ » فى الشمس وهو يسير على بعيره؛ فلما قدم «مكة» على «خديجة» بمالها باعت ما جاء به، فأضعف - أو قريباً - ؛ وحدثها «ميسرة» عن قول الراهب، وما كان يرى من إظلال الملائكة إياه .

وكانت «خديجة» امرأة حازمة شريفة لبيبة، مع ما أراد الله بها من كرامتها، فلما أخبرها «ميسرة» ما أخبرها، بعثت إلى رسول الله «ﷺ» فقالت له - فيما يزعمون - : يا ابن عم إنى قد رغبت فيك لقرابتك (٢) وسطتك (٣) فى قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك .

---

(١) يريد : ما نزل تحتها هذه الساعة : إلاّ نبىٌّ . (٢) وسطتك : شرفك .
(٣) يلتقى نَسَبُها بنسب رسول الله «ص» عند جدهما الأعلى «قصى» .

وكانت أوسط نساء «قريش» نسباً وأعظمهن شرفاً، وأكثرهن مالاً، كل قومها كان حريصاً على ذلك منها لو يقدر عليه، فلما قالت ذلك لرسول الله « ﷺ » ذكر لأعمامه، فخرج معه عمه «حمزة» (١) حتى دخل على «خويلد بن أسد» فخطبها إليه، فتزوجها عليه الصلاة والسلام) .

وقال «ابن هشام» :

(فأصدقها عشرين بكرة، وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله « ﷺ »، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت) .

ونعود إلى موضوع إعادة بناء «الكعبة» . . !

يقول «موسى بن عقبة» (٢) :

(وإنما حمل «قريشاً» على بنائها أن السيول كانت تأتي من قومها، من فوق الردم الذي صفوه، فخرَّبه، فخافوا أن يدخلها الماء - وكان رجل يقال له «مليح» سرق طيب «الكعبة» - فأرادوا أن يشيدوا بنيانها، وأن يرفعوا بابها، حتى لا يدخلها إلا من شاؤوا، فَأعدُّوا لذلك نفقه وعمالاً، ثم غدوا إليها ليهدموها على شفق وحذر أن يمنعهم الذي أرادوا. فكان أول رجل طلعها وهدم منها شيئاً «الوليد ابن المغيرة») .

ويضيف «محمد بن إسحاق» :

(وكان البحر قد رمى بسفينة إلى «جدة» لرجل من تجار الروم، فتحطمت، فأخذوا خشبها فأعدوه لتسقيفها) وقال «الأموي» - سعيد ابن يحيى الأموي» - :

---

(١) وقيل «أبو طالب» . (٢) (البداية والنهاية، (ج : ٢)(ص : ٣٦٧ - ٣٦٨).

(كانت هذه السفينة لقيصر – ملك الروم –، تحمل آلات البناء من الرخام والخشب والحديد، سرحها «قيصر» مع «باقوم» – الرومى – إلى الكنيسة التى أحرقها «الفرس» لـ «الحبشة» (١)، فلما بلغت مرساها من «جدة» بعث الله عليها ريحاً فحطمتها) .

(وكان بـ «مكة» رجل قبطى (٢) بحار فتهيأ لهم فى أنفسهم بعض ما يصلحها . . ! وكانت حية تخرج من بئر «الكعبة» التى كانت تطرح فيها ما يهدى إليها كل يوم، فتشرف على جدار «الكعبة»، وكانت مما يهابون، وذلك أنه كان لا يدنو منها أحد إلا اخزألت (٣) وكشت وفتحت فاها، فكانوا يهابونها، فبينما هى يوماً تشرف على جدار «الكعبة»، كما كانت تصنع، بعث الله عليها طائراً فاختطفها، فذهب بها؛ فقالت «قريش» : إنا لنرجو أن يكون الله تعالى قد رضى ما أردنا . . وعندنا عامل رفيق، وعندنا خشب، وقد كفانا الله الحية) .

(ثم إن القبائل من «قريش» جمعت الحجارةو لبنائها، كل قبيلة تجمع على حدة، ثم بنوها . . . حتى بلغ البناء موضع الركن فاختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، حتى تحاوروا . . . أو تحالفوا . . ، وأعدوا للقتال . . !

فقربت «بنو عبد الدار» جفنة مملوءة دماً، ثم تعاقدوا هم و«بنو عدى بن كعب بن لؤى» على الموت، وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم، فى تلك الجفنة؛ فسموا : لعقة الدم !!

---

(١) هى الكنيسة التى بناها أبرهة «فى صنعاء» وسماها «القليس» – سبق ذكر ذلك – .
(٢) يعنى : من أهل مصر .
(٣) اخزألت : تجمعت واستعدت للوثوب(وقصة الحيه أوردناها كما جاءت)والله أعلم .

فمكثت «قريش» على ذلك أربع ليال - أو خمساً -، ثم إنهم إجتمعوا فى المسجد، فتشاوروا وتناصفوا . . ! فزعم بعض أهل الرواية أن «أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم» - وكان عامئذ أسَنَّ قريش كلها - قال : يا معشر قريش إجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد، يقضى بينكم فيه . . .، ففعلوا .

فكان أول داخل دخل رسول الله « ﷺ » فلما رأوه قالوا : هذا الأمين . . . رضينا، هذا «محمد» !!! فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، قال رسول الله « ﷺ » : [«هلموا إلى ثوباً»] فأتى به، وأخذ الركن فوضعه فيه بيده، ثم قال : [لتأخذ كل قبيلة، بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعاً»]، ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده « ﷺ » ثم بنى عليه؛ وكانت قريش تسمى رسول الله « ﷺ » : «الأمين») .

وعند كونه - صلوات الله وسلامه عليه - أول داخل عليهم من دون الناس جميعاً . . . إن فى ذلك لعبرة ! وكونه « ﷺ » تبادره الحكمة البالغة فى التصرف لحقن الدماء وإزاله الجفاء، وحفظ الأرواح . . .، إن في ذلك - أيضاً - لعبرة . . !

والقدر والتقدير والتدبيرمن عند الله تعالى وحده . . ! ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

أضف إلى ذلك قول «قريش» : إنه «الأمين» . . .، فهناك إجماع منها على هذا اللقب العظيم تطلقه على رسول الله « ﷺ » برضى واختيار وقناعة . . .، فما لهم بعد يجحدون وينكرون !؟؟

إنها العصبية الجاهلية، والقبلية العمياء، والضلالة ما بعدها ضلالة..!

يقول «أبو جهل» :

تنازعنا نحن و«بنو عبد مناف» الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا (١)، واعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كَفَرَسَيْ رهان قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء..، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نسمع به أبداً ولا نصدقه!!

---

(١) أى : حملوا الديات.

(١٦) التحنث عند العرب

كان العرب في جاهليتهم - قبل الإسلام - على مذاهب ثلاثة فى الاعتقاد الدينى، فأكثرهم - وعلى رأسهم «قريش» - كانوا وثنيين مشركين قد حرفوا ما ورثوه من دين «إبراهيم» و«إسماعيل» - عليهما السلام -، واتخذوا الأصنام آلهة من دون الله، أو جعلوها واسطة بينهم وبين الله تعالى، يقربون لها القرابين، ويذبحون عندها النذر، ويركعون لها ويسجدون، ويستفتونها فى أمورهم، مُسْتقسمين بالأزلام . . . ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ . . .﴾ [الزمر : ٣] .

ومن خلال استقراء كلمتى : «اللات» و «العزى» يتضح لنا التحريف والمسخ، فكلمة «اللات» تحريف للفظ الجلالة : [الله]؛ و«العزى» تحريف للفظ [العزيز]

وكان لكل قبيلة «لاتها» و«عزها»؛ ولهما سدنتها وكُهّانها . . . وموسمها .

حتى الحج إلى بيت الله الحرام «الكعبة» قد مسخ وشوه وحرف . . !! إذ كانوا فى طوافهم يصفرون ويصفّقون بدلاً من الدعاء والذكر . . ﴿ وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً . . . ﴾ (١) [الأنفال : ٣٥] .

وليس هذا فحسب . . . بل أفحشوا أكثر من ذلك إذ تعروا من لباسهم، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا !!

(١) المكاء : التصفير، والتصدية : التصفيق . .

قال «ابن إسحاق» (١) :

(ويزعمون أن أول ما كانت عبادة الحجارة فى بنى «إسماعيل» - عليه السلام - أنه كان لا يظعن من «مكة» ظاعن منهم - حين ضاقت عليهم، والتمسوا الفسح فى البلاد - إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم، تعظيماً للحرم، فحيث ما نزلُوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بـ«الكعبة» !!، حتى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم، حتى خلفت الخلوف (٢)، ونسوا ما كانوا عليه) .

وفى الصحيح عن «أبى رجاء العطاردى» قال : [كنا فى الجاهلية إذا لم نجد حجراً جمعنا حثية من التراب وجئناً بالشاة فحلبناها عليه، ثم طفنا بها] .

وقال «ابن إسحاق (٣) :

(واستبدلوا بدين «إبراهيم» و«إسماعيل» - عليهما السلام - غيره، فعبدوا الأوثان، وصاروا إلى ما كنت عليه الأمم قبلهم من الضلالات، وفيهم على ذلك بقايا من عهد «إبراهيم» - عليه السلام - يتمسكون بها، من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف على «عرفات» و«المزدلفة»، وهدى البدن، والإهلال بالحج والعمرة، مع إدخالهم فيه ما ليس منه .

---

(١) (البداية والنهاية) (ج : ٢) (ص : ٢٣٧) .
(٢) الخلوف : القرن بعد القرن .
(٣) (البداية والنهاية) (ج : ٢) (ص : ٢٣٧) .

فكانت «كنانة» و«قريش» إذا أهلوا قالوا : [لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، يملكه وما ملك] فيوحدونه بالتلبية ثم يدخلون معه أصنامهم، ويجعلون ملكها بيده) .

يقول الله تعالى : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف : ١٠٦] .

أي : ما يوحدونني لمعرفة حقي إلا جعلوا معي شريكاً من خلقي.

قال «المسعودي» في «مروج الذهب» (١) :

(كانت العرب في جاهليتهم فرقاً : منهم الموحد المقر بخالقه، المصدق بالبعث والنشور؛ وكان من العرب من أقرَّ بالخالق وأنكر الرسل، وعكف على عبادة الأصنام، وهذا الصنف هم الذين حجوا إلى الأصنام وقصدوها ونحروا لها البدن، ونسكوا لها النسائك؛ ومنهم من أقرَّ بالخالق وكذب بالرسل والبعث، ومنهم من مال إلى اليهودية والنصرانية، ومنهم المار على عنجهيته الراكب لهجمته، ومنهم صنف يعبدون الملائكة ويزعمون أنها بنات الله) ! - هـ وهذا التصنيف الذي قال به «المسعودي» لا يخرج في إطاره العام عما تحدثنا عنه،

والميْل إلى اليهودية لدى بعضهم إنما تأتي على فترات وبواعث مختلفة . . !

فالوجود اليهودي في جزيرة العرب قد جاء من خلال التشريد والسبي الذي أصابهم على يد «بُخْتنصر» الفارسي عندما أوقع بهم

---

(١) [ج : ٢][ص : ١٣٧] .

في «فلسطين» وقضى على سلطانهم، فلجأ أكثرهم إلى الصحراء جنوباً، ولم يتركزوا فى بقعة واحدة، فمنهم من أقام فى «خيبر» وحولها، ومنهم من نزل «يثرب» . . . ، ومنهم من أوغل حتى بلغ اليمن» . . !

وكان لهم خبرة ورؤية فى الشؤون الحياتية، من تجارة وزراعة وغيرها، كما كان لهم بعض الرصيد فى المعتقد الدينى، بأنهم أهل كتاب واتباع «موس» - عليه السلام - فاستعلوا على الناس . . ! وظهرت سيطرتهم واضحة .

من هنا تأثر بعض العرب بهم ومالوا إليهم واختلطوا بهم ودانوا بدينهم؛ وما أسماء «كعب بن الأشرف» و«السمو أل» [1] ببعيدة عن الأذهان والأسماع .

أما الميل إلى النصرانية فقد جاء متأخراً بعض الوقت . . !

وأما النصرانية ذاتها فقد دخلت جزيرة العرب على مرحلتين : الأولى مبكرة وفى عهد صفائها الأول، وقبل أن تستشرى فيها ترهات «بولس» وافترآته، وطقوس الامبراطورية الرومانية .

دخلت على يد راهب إسمه «أفيميون» ورجل من العرب من أهل «نجران» اسمته المراجع التاريخية باسم «عبد الله»، وتأثر به ورافقه، ونشط معه .

---

(١) نلاحظ من كلمة «السَّمَوْأل» التقارب اللفظيّ بينها وبين «صموئيل»، وكذلك «إسماعيل»!!!

وكانا يواجهان الوثنية، ويدعوان إلى التوحيد . . !

ومن هنا كانت مذبحة أصحاب الأخدود [1] ، لهما ولمن تبعهما من الناس .

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج : ١ - ١٠] .

تلك كانت البذرة الأولى . . !

أما المرحلة الثانية لوجود النصرانية فكانت عندما أرسل ملك «الحبشة» قائديه : «أرياط» و«أبرهة» على رأس جيش كثيف لتخليص «اليمن» من حكم «ذى نواس» - الحميرى -، بناءً على أوامر «القيصر» - الرومانى - .

وكانت وصية «النجاشى» لقائده الأول «أرْياط» :

(إن أنت ظفرت عليهم فاقتل ثلثهم، وأخرب ثلث بلادهم، واسب ثلث نسائهم وأبنائهم) [2] .

وبذا كان للنصرانية وجود فى جزيرة العرب، وكان معظمها فى «نجران»، وفي القبائل التى نزحت إلى تخوم الشام وتأثرت بالسلطان الرومانى وحالفته، كـ «غسان» و«لخم» وجذام» وغيرها .

---

(١) يرجى مراجعة ذلك فى كتب التفسير والتاريخ .

(٢) (تاريخ العرب قبل الإسلام) (جواد على) [ج: ٣-ص: ١٥٠ وما بعدها] .

وكما تأثر بعض العرب - من أهل الحجاز - باليهودية، مال بعضهم إلى النصرانية، ولكن بدافع دينى عقدى، هروباً مما كان عليه الأكثرون من وثنية وصنمية، ولواذاً بعقيدة سماوية، ونبى مرسل، ووحى إلهى . . !

وفى نفس الوقت كانوا يتأثرون بما يسمعون من أهل هذا الدين، وما جاء فى كتبهم، عن نبى منتظر من العرب، من بنى «إسماعيل» . . !

وهذا ما دفع ببعضهم إلى ما عرف بـ «التحنث» . . ! أو «التحنف»، آملاً أن يكون هو ذاك النبى المنتظر .

جاء فى «مختار الصحاح» (١) تحت لفظ :

[ح - ن - ف] (الحنيف : «المسلم»)؛ و (تحنَّف) الرجل أى عَمِل عَمَلَ الحنيفية، ويقال : اختتن، ويقال اعتزل الأصنام وتعبد .

وترددت الكلمة فى القرآن الكريم اثنتي عشرة مرة، فى سور : «البقرة» و«آل عمران» و«النساء» و«الأنعام» و«يونس» و«النمل»، و«الروم» و«الحج» و «البينة» .

١ - ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [البقرة : ١٣٥] .

٢ - ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ [آل عمران : ٦٧] .

٣ - ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [آل عمران : ٩٥] .

---

(١) لـ «الرازى» [محمد بن أبى بكر بن عبد القادر] .

٤ – ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء : ١٢٥] .

٥ – ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام : ٧٩] .

٦ – ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام : ١٦١] .

٧ – ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يونس : ١٠٥] .

٨ – ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل : ١٢٠] .

٩ – ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل : ١٢٣] .

١٠ – ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم : ٣٠] .

١١ – ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ [الحج : ٣١] .

١٢ – ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة : ٥]

وأكثر الآيات جاء فيها لفظ «إبراهيم» – عليه السلام – صريحاً، وبعضها مضموناً، وكلها تنصب على معنى الميل عن الشرك والكفر إلي إسلام القلب والعقل لله الواحد الأحد، وإفراده بالعبودية سبحانه .

والتحنث – لغة – : التعبد واعتزال الأصنام؛ فهى والتحنف بمعنى واحد .

قال «ابن هشام» (١) : والعرب تقول : التحنف، و التحنث؛ يبدلون (الفاء) من (الثاء)، كما قالوا : جدف وجدث، كما قال «رؤية بن العجاج» :

لو كان أحجارى مع الأجداف . . .

يريد الأجداث . . (أى القبور) .

وقال «ابن هشام» - أيضاً - :

(وحدثنى «أبو عبيدة» (٢) أن العرب تقول : فم، فى موضع : ثم).

قلت (٣) : ومن ذلك قول بعض المفسرين : ﴿وفومها﴾ أن المراد : ثومها .

ومن أبرز الأسماء التى عاشت تلك الفترة وتأثرت . . . ، فتحنثت :

«أمية بن أبى الصلت» و«قس بن ساعدة الإيادى» وزيد بن عمرو ابن نفيل»، ولكل منهم قصة . . !

أما «أمية» فكان شاعراً جاهلياً، قدم «دمشق» قبل الإسلام، وقيل إنه كان مستقيماً، وكان فى أول أمره على الإيمان، ثم زاغ عنه، وأنه هو الذى أراده الله تعالى بقوله ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الأعراف : ١٧٥] .

روى «عبد الرزاق» عن «سفيان الثورى» عن «عبد الله بن عمرو ابن العاص» - رضى الله عنهما- قال - وزيد بن أسلم» - : [نزلت-

---

(١) (شذور الذهب) . (٢) أحد أعلام اللغة .

(٣) أى «ابن كثير» [البداية والنهاية] (ج : ٣) (ص : ١٠) رواها الطبرانى .

هذه الآية : فى «أمنية»، وقد كان قرأ الكتب وعلم أن الله مرسل رسولاً فى ذلك الوقت، وتمنى أن يكون هو ذلك الرسول، ولما أرسل الله «محمداً» « ﷺ » حسده وكفر به] .

وفيه قال رسول الله « ﷺ » : [«آمن شعْرُهُ وكفر قلبه»] .

ومن بعض الروايات التى رويت فى حقه ما حدثنا به «أبو سفيان ابن حرب» - رضى الله عنه - (١)، قال : [إن «أمية بن أبى الصلت» كان بـ «غزة» أو بـ «إيلياء» (٢)، فلما قفلنا قال لى «أمية» : يا «أبا سفيان» هل لك أن تتقدم على الرفقة فنتحدث !؟ قلت : نعم . ففعلنا . . . فقال لى : يا «أبا سفيان» إيه عن «عتبة بن ربيعة»؟ كريم الطرفين ويجتنب المحارم والمظالم !؟ قلت : نعم، قال : وشريف مسن !؟ قلت : وشريف مسن قال : السن والشرف أزريا به ، فقلت له : كذبت . . . ما آزداد سناً إلا ازداد شرفاً . . . قال : يا «أبا سفيان» إنها كلمة ما سمعت أحداً يقولها لى منذ تبصرت . . . ، فلا تعجل على حتى أخبرك . . . ، قلت : هات . . . ، قال : إنى كنت أجد فى كتبى نبياً يبعث من حرَّتنا هذه، فكنت أظن - بل كنت لا أشك أنى أنا هو . . . ، فلما دارست أهل العلم إذا هو من «بنى عبد مناف»، فنظرت فى «بنى عبد مناف» فلم أجد أحداً يصلح لهذا الأمر غير «عتبة بن ربيعة»، فلما أخبرتنى بسنه عرفت أنه ليس به حين جاوز الأربعين ولم يوح إليه] .

---

(١) رواها «الطبرانى» .

(٢) إيلياء : بيت المقدس .

ويتابع «أبو سفيان» الرواية فيقول :

[فضرب الدهر ضربه فأوحى إلى رسول الله « ﷺ » . . .
وخرجت فى ركب من «قريش» أريد «اليمن» فى تجارة، فمررتُ بـ «أمية» (١)، فقلت له كالمستهزىء به : يا «أمية» قد خرج النبى الذى كنت تنعته . . !

قال : أما إنه حق فأتبعه . . !؟ قلت : ما يمنعك : من اتباعه؟ قال : ما يمنعنى إلا الاستحياء من نساء «ثقيف» إنى كنت أحدثهن أنى هو . . . ، ثم يروننى تابعاً لغلام من «بنى عبد مناف» . . . ! ثم قال : كأنى بك يا «أبا سفيان» قد خالفته، ثم قد ربطت كما يربط الجدى حتى يؤتى بك إليه، فيحكم فيك بما يريد] !!! .

وروى «الحافظ ابن عساكر» عن «الزهرى» :

[ثم خرج «أمية بن أبى الصلت» إلى «البحرين» . . . . . وأقام ثمانى سنين، ثم قدم «الطائف» فقال لهم : ما يقول «محمد بن عبد الله»؟ قالوا : يزعم أنه نبى . . هو الذى كنت تتمنى . . . ، فخرج حتى قدم عليه «مكة» فلقيه، فقال : يا ابن عبد المطلب ما هذا الذى تقول ؟ قال « ﷺ » [أقول إنى رسول الله وأن لا إله إلا هو . .]، قال: إنى أريد أن أكلمك . . . فعدنى غداً، قال : فموعدك غداً . . ، قال : فتحب أن آتيك وحدى أو فى جماعة من أصحابى؟ فقال رسول

---

(١) كان «أمية» «ثقفيا» ومن أهل «الطائف» .

الله « ﷺ » : أى ذلك شئت !!] قال : فإنى آتيك فى جماعة قال : فاءْت فى جماعة .

فلَما كان الغد غدا «أمية» فى جماعة من «قريش»، وغدا رسول الله «ص» ومعه نفر من أصحابه حتى جلسوا فى ظل «الكعبة»، فبدأ «أمية»، فخطب ثم سجع . . ، ثم أنشد الشعر، حتى إذا فرغ قال : أجبنى يا «ابن عبد المطلب» . . . ، فقال رسول الله « ﷺ » : ﴿بسم الله الرحمن الرحيم، يسن ، والقرآن الحكيم﴾؛ حتى إذا فرغ منها وثب «أمية» يجر رجليه . . . ، فتبعته «قريش» يقولون : ما تقول يا «أمية»؟ قال : أشهد أنه على الحق . . ، فقالوا : هل تتبعه؟ قال : حتى أنظر فى أمره .

ثم خرج إلى «الشام» . . . ، وقدم رسول الله « ﷺ » «المدينة»، فلما قتل أهل «بدر» قدم «أمية» من «الشام» حتى نزل «بدراً» ، ثم ترحَّل يريد رسول الله « ﷺ »، فقال قائل : ما تريد يا «أبا الصلت»؟ قال : أريد «محمداً»؛ قال : وما تصْنع؟ قال : أو من به وأُلقى إليْه مقاليد هذا الأمر، قال : أتَدْرى مَنْ فى القليب؟ قال : لا، قال : فيه «عتبة بن ربيعة» و«شيبة بن ربِيعة»، وهما إبنا خالك (1) . . !! فَجَدع «أمية» أذنى ناقته، وقطع ذنبها، ثم وقف على القليب يقول :

ماذا بـ«بدر» فالعقنـ قل من مرازبة جحا جح . . .

وهى قصيدَة طويلة يرثى فيها المشركين .

ثم رجع إلى «مكة» و«الطائف» وترك الإسلام؛ حتى لقى حتفه كافراً .

---

1 - كانت أم «أمية» : «ربيعة بنت عبد شمس» .

وأما «قس بن ساعدة» - الإيادى -، فقد روى «أبو بكر الخرائطى» فى كتاب «هواتف الجان» عن «عبادة من الصامت» - رضى الله عنه - قال :

[لما قدم وفد «إياد» على النبى « ﷺ » [1] قال : «يا معشر وفد «إياد» ما فعل «قس بن ساعدة الإيادى» ؟ «قالوا : هلك يا رسول الله؛ قال « ﷺ » : «لقد شهدته يوماً بسوق «عكاظ» على جمل أحمر يتكلم بكلام معجب موفق، لا أجدنى أحفظه .

فقام إليه أعرابى من أقاصى القوم فقال: أنا أحفظه يا رسول الله . . ، فسر النبى « ﷺ » بذلك . قال - أى الأعرابى - : فكان بسوق «عكاظ» على جمل أحمر، وهو يقول: يا معشر الناس اجتمعوا، فكلّ من فات فات، وكل شىء آت آت، ليْل داج، وسماء ذات أبراج، وبحر عجاج، نجوم تزهر، وجبال مرسية، وأنهار مجرية؛ إن فى السماء لخبراً، وإن فى الأرض لعبرا، مالى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون؟ أرضوا بالإقامة فأقاموا؟ أم تركوا فناموا ؟ أقسم «قس» بالله قسماً لا ريب فيه، إن لله ديناً هو أرضى من دينكم هذا . . .

فى الذاهبين الأو ... لين من القرون لنا بصائر
لمّا رأيت موارداً ... للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوها ... يمضى الأصاغر والأكابر
لا من مضى يأتى إليـ ... ك ولا من الباقين غابر
أيقنت أنى لا محا ... لة حيث صار القوم صائر]

---

(1) فى عام الوفود، العام التاسع من الهجرة .

ومات «قس» على نصرانيته فى صفائها الأول ؛

وقد نسب إلى رسول الله « ﷺ » قوله فيه : [رحم الله قساً «أما إنه سيبعث يوم القيامة أمة وحده»] قال الإمام «ابن كثير» : (هذا الحديث غريب جداً من هذا الوجه، وهو مرسل، إلا أن يكون «الحسن» [بن أبى الحسن البصرى - الراوى] سمعه من «الجارود» [«ابن المعلى»] ؛ - رضى الله عنه -، والله أعلم) .

وأما «زيد بن عمرو بن نفيل» (١) ؛ فقد ترك عبادة الأوثان، وفارق دين قومه، وكان لا يأكل إلا ما ذبح على اسم الله وحده، وروى «محمد بن إسحاق» عن أسماء بنت أبى بكر» قالت : [لقد رأيت «زيد بن عمرو بن نفيل» مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول : يا معشر «قريش» والذى نفس «زيد» بيده ما أصبح منكم على دين «إبراهيم» غيرى، ثم يقول : اللهم إنى لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به، ولكنى لا أعلم . . . ، ثم يسجد على راحلته .

وكان يصلى إلى «الكعبة» ويقول : إلهى إله «إبراهيم»، ودينى دين «إبراهيم»، وكان يحيى الموؤدة، ويقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته : لا تقتلها . . . إدفعها إلي أكفلها، فإذا ترعرعت . . . فإن شئت فخذها، وإن شئت فادفعها (٢)] .

---

(١) كان «الخطاب» والد «عمر بن الخطاب» عمه وأخاه لأمه، وذلك لأن «عمرو بن نفيل» كان قد خلف على امرأة أبيه بعد أبيه، وكان لها من «نفيل» أخوه «الخطاب» [قاله الزبير بن بكار ومحمد بن اسحاق] (البداية والنهاية) (ج : ٢) (ص ٢٩٦) .

(٢) أخرجه النسائى، وعلقه البخارى .

قال «محمد بن إسحاق» :

(وقد كان نفر من قريش «زيد بن عمرو بن نفيل» و«ورقة بن نوفل» و«عثمان بن الحويرث» و«عبيد الله بن جحش» حضروا قريشاً عند وثن لهم كانوا يذبحون عنده لعيد من أعيادهم، فلما اجتمعوا خلا بعض أولئك النفر إلى بعض وقالوا : تصادقوا . . . وليكتم بعضكم على بعض؛ فقال قائلهم : تعلمن والله ما قومكم على شيء !!، لقد أخطأوا دين «إبراهيم» وخالفوه . . . ، ما وثن يعبد ؟ لا يضر ولا ينفع، فابتغوا لأنفسكم .

فخرجوا يطلبون، ويسيرون في الأرض، يلتمسون أهل كتاب من اليهود والنصارى والملل كلها . . . . الحنيفية دين «إبراهيم» .

فأما «ورقة بن نوفل» فتنصر واستحكم في النصرانية، وابتغى الكتب من أهلها، حتى علم علماً كثيراً من أهل الكتاب .

ولم يكن فيهم أعدل أمراً وأعدل ثباتاً من «زيد بن عمرو بن نفيل»؛ اعتزل الأوثان، وفارق الأديان من اليهود والنصارى والملل كلها إلا دين الحنيفية، دين «إبراهيم»؛ يوحد الله ويخلع ما دونه، ولا يأكل ذبائح قومه، فإذا هم بالفراق لما هم فيه . . !

وكان «الخطاب» قد آذاه أذى كثيراً، حتى خرج منه إلى أعلى «مكة» . . . ، ووكل به «الخطاب» شباباً من «قريش» وسفهاء من سفهائهم، فقال : لا تتركوه يدخل، فكان لا يدخلها إلا سراً منهم، فإذا علموا به أخرجوه وآذوه، كراهية أن يفسد عليهم دينهم، أو يتابعه أحد إلى ما هو عليه .

وكانت امرأته «صفية بنت الحضرمى» كلما أبصرته قد نهض للخروج – من مكة – وأراده آذنت «الخطاب» . . . !

فخرج «زيد» إلى الشام يلتمس ويطلب فى أهل الكتاب الأول دين «إبراهيم» (١) ويسأل عنه، ولم يزل فى ذلك حتى أتى «الموصل» و«الجزيرة» كلها، ثم أقبل حتى أتى «الشام» فجال فيها، حتى أتى راهباً ببيعة من أرض «البلقاء» (٢)، كان ينتهى إليه علم النصرانية، فسأله عن الحنيفية دين «إبراهيم»، فقال له الراهب : إنك لتسأل عن دين ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم، لقد درس من علمه، وذهب من كان يعرفه، ولكنه قد أظل خروج نبى، وهذا زمانه .

وكان قد شام اليهود والنصرانية، فلم يرضى منها شيئاً فخرج سريعاً – حين قال له الراهب ما قال، يريد «مكة»، حتى إذا كان بأرض «لَخْم» عدوا عليه فقتلوه .

فرثاه «ورقة بن نوفل» قائلاً :

رشدت وأنعمت «ابن عمرو» وإنما
تجنبت تنُّوراً من النـــار حاميـــاً
بدينـك ربـاً ليـس رب كمثلـــه
وتركك أوثان الطواغى كما هيـــا
وقد تدرك الإنسان رحمة ربـــه
ولو كان تحت الأرض ستين وادياً)

(١) ذلك أنه لم يقتنع بما كان عليه اليهود والنصارى فى جزيرة العرب .
(٢) البلقاء : الأردن

ومن شعره المأثور عنه؛ قوله :

وأسلمت وجهى لمــن أسلمت له الأرض تحمل صخراً ثقالا
دحاها فلما اســتوت شدهــا سواءً وأرسى عليها الجبــالا
وأسلمت وجهى لمن أسلمــت له المزن تحمل عذبــاً زلالا
إذا هى سيقــت إلى بلـــدة أطاعت فصبَّتْ عليها سجالا
وأسلمت وجهى لمــن أسلمت له الريح تصرف حالاً فحالا

وقوله :

أربٌّ واحــد أم ألـــف رب أدين إذا تقسمت الأمــور
عزلت «اللات» و«العزى» جميعاً كذلك يفعل الْجَلْدُ الصبـور
فلا «العزى» أدين ولا ابنتيهـــا ولا صنمى «بنى عمرو» أزور
ولا «غنما» أدين وكان ربـــاً لنا فى الدهر إذ حلمى يسير
عجبت وفى الليالى معجبــات وفى الأيام يعرفها البصــير
بأن الله قد أفــنى رجـــالاً كثيراً كان شأنهم الفجــور
وأبقى آخرين ببــر قـــوم فيربل منهم الطفل الصغــير
وبينا المرء يعثر ثاب يومـــاً كما يتروح الغصن النضــير
ولكن أعبد الرحمــن ربـــى ليغفر ذنبى الرب الغفـــور
فتقوى الله ربكم احفظوهـــا متى ما تحفظوها لا تبــور
ترى الأبرار دارهم جنــــان وللكفار حاميــة سعــير
وخزى فى الحياة وإن يموتـــوا يلاقوا ما تضيق به الصدور

وصدق رسول الله « ﷺ » إذ يقول عن «زيد» : [«غفر الله له، ورحمه، فإنه مات علي دين «إبراهيم»] .

(١٧) الله أعلم حيث يجعل رسالته

قال تعالى : ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ [الأنعام : ١٢٤] .

وقال جل جلاله : ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف : ٣١ - ٣٢] .

من خلال استقراء الواقع التاريخي لـ «قريش» وللعرب ، يتبيَّن لنا أن إرهاصات النبوة كانت بارزة جلية عندهم ، ينتظرون حدوثها ، متأثرين باستطلاعات العرافين والكهنة والمنجمين ، وأيضاً بما كان يردده أحبار أهل الكتاب ، بين حين وآخر . . . ! وعند بعثة سيدنا رسول الله « ﷺ » تنكر أكثرهم لها ، وقالوا ما قالوا . . ! مما ذكره القرآن الكريم عنهم .

يقول صاحب «الظلال» - عليه من الله تعالى الرحمة (١) :

﴿ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون﴾

ولا يختلط الحق بالسحر ، فهو واضح بين ، وإنما هي دعوى ، كانوا هم أول من يعرف بطلانها ، فما كان كبراء «قريش» ليغيب عنهم

---

(١) «في ظلال القرآن» (ج : ٥) (ص : ٣١٨٥) [ط : دار الشروق] .

أنه الحق [١]، ولكنهم كانوا يخدعون الجماهير من خلفهم فيقولون : إنه سحر، ويعلنون كفرهم به على سبيل التوكيد، يقولون : ﴿وإنا به كافرون﴾ ليلقوا فى روع الجماهير أنهم واثقون مما يقولون، فيتبعوهم عن طريق الإيحاء والانقياد، شأن الملأ من كل قوم، فى التغرير بالجماهير، خيفة أن يُفْلتوا من نفوذهم، ويهتدوا إلى كلمة التوحيد، التى يسقط معها كل كبير، ولا يعبد ولا يتقى إلا الله العلى الكبير .

ثم يحكى القرآن تخليطهم في القيم والموازين وهم يعترضون على اختيار «محمد» - ﷺ - ليحمل إليهم الحق والنور : ﴿وقالوا لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ .

يقصدون بالقريتين : «مكة» و«الطائف» [٢]، ولقد كان رسول الله « ﷺ » من ذؤابة «قريش»، ثم من ذؤابة «بنى هاشم»، وهم فى العلية من العرب، كما كان شخصه «ص» معروفاً بسمو الخلق فى بيئته قبل بعثته؛ ولكنه لم يكن زعيم قبيلة، ولا رئيس عشيرة، فى بيئة تعتز بمثل هذه القيم القبلية، وهذا ما قصد إليه المعترضون بقولهم : ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ .

والله أعلم حيث يجعل رسالته . . . ، ولقد اختار لها من يعلم أنه لها أهل، ولعله - سبحانه - لم يشأ أن يجعل لهذه الرسالة سنداً من خارج طبيعتها، ولا قوة من خارج حقيقتها، فاختار رجلاً ميزته الكبرى : الخلق . . . ، وهو من طبيعة هذه الدعوة، وسمته البارزة :

---

(١) كما صرح بذلك «أبو جهل» .
(٢) وبالرجلين : «الوليد بن المغيرة» و«عروة بن مسعود الثقفى» - على أرجح الأقوال .

التجرد . . ، وهو من طبيعة هذه الدعوة، ولم يختره زعيم قبيلة ولا رئيس عشيرة، ولا صاحب جاه، ولا صاحب ثراء . . ، كي لا تلتبس قيمة واحدة من قيم هذه الأرض بهذه الدعوة النازلة من السماء، ولكي لا تزدان هذه الدعوة بحلية من حلي هذه الأرض ليست من حقيقتها في شيء ، ولكي لا يكون هناك مؤثر مُصاحب لها خارج عن ذاتها المجردة ، ولكي لا يدخلها طامع ولا يتنزُّه عنها متعفف .

ولكن القوم الذين غلب عليهم المتاع، والذين لم يدركوا طبيعة دعوة السماء ، راحوا يعترضون ذلك الاعتراض : ﴿لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ !

فرد عليهم القرآن مستنكراً هذا الإعتراض على رحمة الله ، التي يختار لها من عباده من يشاء، وعلى خلطهم بين قيم الأرض وقيم السماء مبيناً لهم عن حقيقة القيم التي يعتزون بها ، ووزنها الصحيح في ميزان الله : ﴿أهم يقسمون رحمة ربك ؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾ .

أهم يقسمون رحمة ربك ؟؟ يا عجباً !! وما لهم ورحمة ربك ؟ وهم لا يملكون لأنفسهم شيئاً، ولا يُحَقِّقُون لأنفسهم رزقاً ، حتى رزق هذه الأرض الزهيد نحن أعطيناهم إياه ، وقسمناه بينهم وفق حكمتنا وتقديرنا لعمران هذه الأرض ، ونمو هذه الحياة .

﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً . . ﴾ ورزق المعاش فى الحياة الدنيا يتبع مواهب الأفراد، وظروف الحياة، وعلاقات المجتمع، وتختلف نسب التوزيع بين الأفراد والجماعات وفق تلك العوامل كلها . . ، تختلف من بيئة لبيئة، ومن عصر لعصر، ومن مجتمع لمجتمع، وفق نظمه وارتباطاته وظروفه العامة كلها؛ ولكن السمة الباقية فيه، والتى لم تتخلف أبداً - حتى فى المجتمعات المصطنعة المحكومة بمذاهب موجهة للانتاج والتوزيع - أنه متفاوت بين الأفراد .

وتختلف أسباب التفاوت كما تختلف بين نوازع المجتمعات وألوان النظم، ولكن سمة التفاوت فى مقادير الرزق لا تختلف أبداً، ولم يقع يوما - حتى فى المجتمعات المصطنعة المحكومة بمذاهب موجهة أن تساوى جميع الأفراد في هذا الرزق أبداً ﴿ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات﴾ .

والحكمة فى هذا التفاوت الملحوظ في جميع العصور، وجميع البيئات، وجميع المجتمعات هى : ﴿ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً﴾ .

ليسخر بعضهم بعضاً . . ، ودولاب الحياة حين يدور يسخر بعض الناس لبعض حتماً؛ وليس التسخير هو الاستعلاء . . . ، استعلاء طبقة على طبقة، أو استعلاء فرد على فرد . . . كلا !! إن هذا معنى قريب ساذج، لا يرتفع إلى مستوى القول الإلهى الخالد . . كلا !!

إن مدلول هذا القول أبقى من كل تغير أو تطور فى أوضاع الجماعة البشرية، وأبعد من ظرف يذهب وظرف يجىء . . ، إن كل البشر

سخر بعضهم لبعض . . ، ودولاب الحياة يدور بالجميع ، ويسخر بعضهم لبعض فى كل وضع وفى كل ظرف ، المقدر عليه فى الرزق مُسَخّر للمبسوط له فى الرزق ، والعكس كذلك صحيح .

فهذا مسخر ليجمع المال ، فيأكل منه ويرزق ذاك ، وكلاهما مسخر للآخر ، سواء بسواء ، والتفاوت فى الرزق هو الذى يسخر هذا لذاك ، ويسخر ذاك لهذا فى دورة الحياة . . ، العامل سخر للمهندس وسخر لصاحب العمل ، والمهندس سخر للعامل ولصاحب العمل ، وصاحب العمل مسخر للمهندس وللعامل على السَّواء . . ، وكلهم . . . مسخرون للخلافة فى الأرض بهذا التفاوت في المواهب والاستعدادات ، و التفاوت فى الأعمال والأرزاق .

وأحسب أن كثيرين من دعاة المذاهب الموجهة يتخذون من هذه الآية موضع هجوم على الإسلام ونظمه الاجتماعية والاقتصادية ، وأحسب أن بعض المسلمين يقفون يجمجمون أمام هذا النص . . كأنما يدفعون عن الإسلام تهمة تقرير الفوارق فى الرزق بين الناس ، وتهمة تقرير أن الناس يتفاوتون فى الرزق ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ! !

وأحسب أنه قد آن لأهل الإسلام أن يقفوا بإسلامهم مواجهة وصراحة موقف الاستعلاء المطلق ، لا موقف الدفاع أمام اتهام تافه ! !

إن الإسلام يقرر الحقائق الخالدة المركوزة فى فطْرة هذا الوجود ، الثابتة ثبات السماوات والأرض ونواميسها التى لا تختل ولا تتزعزع .

وطبيعة هذه الحياة البشرية قائمة على أساس التفاوت فى مواهب الأفراد، والتفاوت فيما يمكن أن يؤتيه كل فرد من عمل، والتفاوت فى مدى إتقان هذا العمل .

وهذا التفاوت ضرورى لتنوع الأدوار المطلوبة للخدمة فى هذه الأرض، ولو كان جميع الناس نسخاً مكررة ما أمكن أن تقوم الحياة فى هذه الأرض بهذه الصورة؛ ولبقيت أعمال كثيرة جداً لا تجد لها مقابلاً من الكفايات، ولا تجد من يقوم بها؛ والذى خلق الحياة وأراد لها البقاء والنمو، خلق الكفايات والاستعدادات متفاوتة تفاوت الأدوار المطلوب أداؤها .

وعن هذا التفاوت فى الأدوار يتفاوت الرزق، هذه هى القاعدة. . . ، أما نسبة التفاوت في الرزق فقد تختلف من مجتمع إلى مجتمع، ومن نظام إلى نظام، ولكنها لا تنفى القاعدة الفطرية المتناسقة مع طبيعة الحياة الضرورية لنمو الحياة؛ ومن ثم لم يستطع أصحاب المذاهب المصطنعة المتكلفة أن يساووا بين أجر العامل وأجر المهندس، ولا بين أجر الجندى وأجر القائد، على شدة ما حاولوا أن يحققوا مذهبهم، وهزموا أمام الناموس الإلهى الذى تقرره هذه الآية من كلام الله، وهى تكشف عن سنة ثابتة من سنن الحياة .

ذلك أن شأن الرزق والمعاش في هذه الحياة الدنيا، ووراء ذلك رحمة الله : ﴿ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾ .

والله يختار لها من يشاء، ممَّن يعلم أنهم لها أهل، ولا علاقة بينها وبين عرض الحياة الدنيا، ولا صلة لها بقيم هذه الحياة الدنيا، فهذه القيم عند الله زهيدة . . زهيدة . ! ومن ثم يشترك فيها الأبرار والفجار، وينالها الصالحون والطالحون، بينما يختص برَحْمَتِه المختارين .

وإن قيم هذه الأرض لمن الزهادة والرخص بحيث - لو شاء الله - لأغرقها إغراقاً على الكافرين به، ذلك إلا أن تكون فتنة للناس، تصدهم عن الإيمان بالله :

﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف : ٣٣ - ٣٥].

(١٨) ﴿إقرأ ..﴾ و ﴿ليلة القدر﴾

بسم الله الرحمن الرحيم :

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ . . ﴾

[العلق : ١ : ٥]

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القدر : ١ - ٥] .

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٥] .

﴿حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦) رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٧) لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ [الدخان : ١ - ٨] .

روى الإمام «مسلم» (١) فى صحيحه عن «جابر بن سمرة» رضى الله عنه - قال :

---

(١) وأخرجه «الترمذى» فى المناقب [٥-٥٩٣] والإمام أحمد فى مسنده [٥-٨٩] والدرامى فى المقدمة .

قال رسول الله « ﷺ » : إنى لأعرف حجراً بـ «مكة» كان يسلم عليَّ قبل أن أبعث، إنى لأعرفه الآن] ويقول الإمام «ابن كثير» - رحمه الله - [(١)] :

(وإنما كان رسول الله « ﷺ » يحب الخلاء والانفراد عن قومه، لما يراهم عليه من الضلال المبين، من عبادة الأوثان والسجود للأصنام، وقويت محبته للخلوة عند مقاربة إيحاء الله إليه - صلوات الله وسلامه عليه - .

وقد ذكر محمد بن إسحاق» عن «عبد الملك بن عبيد الله بن أبى سفيان بن العلاء بن جارية - وكان واعية - عن بعض أهل العلم، قال : وكان رسول الله « ﷺ » يخرج إلى «حراء» فى كل عام شهراً من السنة يتنسك فيه، وكان من نسك «قريش» في الجاهلية [(٢)]، يطعم من جاءه من المساكين، حتى إذا انصرف من مجاورته، وقضائه، لم يدخل بيته حتى يطوف بـ «الكعبة» .

وهذا يدل على أن هذا كان من عادة المتعبدين فى «قريش» أنهم يجاورون فى «حراء» للعبادة، ولهذا قال «أبو طالب» فى قصيدته المشهورة :

و«ثور» ومن أرسى «ثبيراً» [(٣)] مكانه
وراق ليرقى فى «حراء» ونازل

---

(١) (البداية والنهاية) (ج : ٣) (ص : ٨) .

(٢) أى يخرج بعضهم - وقليل ما هم- للخلوة، ممن كانوا يبتعدون عن ضلالتها، وممن يطمعون أن يوحى إليهم .

(٣) ثور وثبير : جبلان بـ «مكة» .

و«حراء» يقصر ويمد [1] ، ويصرف ويمنع ، وهو جبل بأعلى «مكة» على ثلاثة أميال منها ، عن يسار المار إلى «منى» ، له قُلّةٌ (ذروة) مشرفة على «الكعبة» منحنية ، والغار فى تلك الحنية .

قال «رؤبة بن العجاج :

فــلا ورب الآمنـــات القطـــن

ورب ركن من «حراء» منحنى) !- هـ

وتحدثنا السيدة «عائشة» [2] أم المؤمنين - رضى الله عنها - عن تلك الفترة فتقول :

أول ما بدىء به رسول الله « ﷺ » من الوحى الرؤيا الصادقة في النوم ، وكان لا يرى رؤيا الإجاءت مثل فلق الصُّبْح ، ثم حبب إليه الخلاء ، فكان يخلو بـ«غار حراء» ، فيتحنث فيه ، الليالى ذوات العدد ، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى «خديجة» فيتزود لمثلها . . ، حتى جاءه الحق وهو فى «غار حراء» .

فجاءه الملك فقال : «إقرأ» ، فقال : ما أنا بقارىء . قال « ﷺ » : «فأخذنى فغطنى [3] حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : إقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء ، فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال : إقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء ، فأخذنى فغطني الثالثة حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال :

(١) أى يقال : حرى ، وحراء .
(٢) صحيح البخارى [باب : كيف كان بدء الوحى] .
(٣) وفى رواية : غتني ، وأصلها : غطه فى الماء : مقله وغوصه فيه ، والغط والغت بمعنى واحد .

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ . فرجع بها رسول الله « ﷺ » يرجف بها فؤاده، فدخل على «خديجة بنت خويلد» فقال : «زملونى . . . زملونى (١) . . . ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع .

فقال لـ «خديجة» - وقد أخبرها الخبر - : «لقد خشيت على نفسى . . . فقالت خديجة : كلا والله . . . لا يخزيك الله أبداً ، إنك لَتَصِلُ الرحم، وتقرى (٢) الضَّيْف، وتحمل الكل (٣)، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق (٤) .

فانطلقت به «خديجة» حتى أتت «ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى» - ابن عم «خديجة» ؛ وكان أمرءاً قد تنصر فى الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من «الإنجيل» بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ؛ وكان شيخاً كبيراً قد عمى . فقالت له «خديجة» : يا ابن عم !! إسمع من ابن أخيك . . ، فقال له «ورقة» : يا ابن أخى ماذا ترى؟

---

(١) زمِّله : لفه فى الثوب؛ وفى رواية : دثرونى ، والدثار هو الغطاء (اللحاف وغيره)، ولعلهما واقعتان، والله أعلم . ويرجف بها فؤاده : يرتعش من شدة ما سمع ورأى - ﷺ - وعاين .

(٢)تقرى : تضيف .

(٣) الكل : العيال، والثقل .

(٤) النوائب : جمع «نائبة» وهى الحادثة خيراً أو شراً، وإنما قال نوائب الحق لأنها تكون فى الحق والباطل .

فأخبره رسول الله « ﷺ » خبر ما أُرى . . . ، فقال له «ورقة» : هذا الناموس [(١)] الذى كان ينزل على «موسى» ، يا ليتنى فيها جذعاً[(٢)] . . . ليتنى أكون حياً ، إذ يخرجك قومك . . ! فقال رسول الله « ﷺ » : « أو مخرجيَّ هم؟ فقال «ورقة» - : نعم ، لم يأت رجل بمثل ما جئْت به إلا عودى ، وإنْ يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً .

ثم لم ينشبَ «ورقة» أن توفَى وفتر الوحى فترة . . .] [(٢)]

[حتى حزن رسول الله « ﷺ » - فيما بلغنا - حزناً غدا منه مراراً كى يتردى من رؤوس شواهق الجبال ، فكلما أوْفى بذروة جبل تبدى له «جبريل» فقال : يا «محمد» إنك رسول الله حقاً ، فيسكن لذلك جأشه ، وتقرنفسه ، فيرجع .

فإذا طالت عليه فترة الوحى غدا لمثل ذلك . . . فإذا أو فى بذروة جبل تبدى له «جبريل» فقال له مثل ذلك] [(٤)] .

ويحدثنا «جابر بن عبد الله» رضى الله عنه - عن رسول الله «ﷺ» ، قال :

[«بينا أنا أمشى إذ سمعت صوتاً من السماء ، فرفعت بصرى ، فإذا الملك الذى جاءنى بـ «حراء» جالس على كرسى بين السماء والأرض ، فرعبْتُ منه ، فرجعت فقلت : «زملونى . . زملونى . . » ،

---

(١) وفى رواية : قال ورقة : قدوس قدوس . . ! والناموس : صاحب السر ، يقال : نمستُ السر : كتمته ، والمقصود هنا «جبريل» - عليه السلام ، لأن الله تعالى خصه بالغيب والوحى .

(٢) هنا تنتهى رواية صحيح «البخارى» .

(٣) [باب التعبير] من «البخارى» .

(٤) تتمة حديث البخارى عن «عائشة» .

فأنزل الله تعالى : ﴿يا أيُّها المُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فأنذرْ ۝٢ ورَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [سورة المدثر : ١ - ٥]؛ فحمى الوحى وتتابع»] .

وكان بدء الوحى لرسول الله « ﷺ » ليلة يوم الاثنين السابع والعشرين من شهر رمضان، (١)، وهو على رأس الأربعين من عمره الشريف، وكان صدر سورة «إقرأ» أوّل ما أوحى به إليه .

وثبت فى «صحيح مسلم» عن «أبى قتادة» - رضى الله عنه - : [أن رسول الله « ﷺ » سئل عن صوم يوم الاثنين فقال : «ذاك يوم وُلِدْتُ فيه، ويوم أنزل على فيه»] (٢) .

وعن «جابر بن عبد الله» - رضى الله عنه - (٣) : [أن رسول الله « ﷺ » سئل عن «ورقة بن نوفل» فقال : «قد رأيته - (أى فى الجنة) - فرأيت عليه ثياب بيض، : أبصرته فى بُطنان الجنة وعليه السندس»] .

وعن «عمرو بن شرحبيل» - : روى الحافظان «البيهقى» و«أبو نعيم» - [أن رسول الله « ﷺ » قال : «لقد رأيت القس فى الجنة عليه ثياب الحرير، لأنه آمن بى وصدقنى»] .

وروى الحافظ «البزار» عن عائشة - رضى الله عنها - قالت [قال رسول الله « ﷺ » : «لا تسبوا ورقة، فإنى رأيت له جنة، أو جنتين] (٤) .

---

(١) وقيل فى شهر ربيع الأول، والأول أشهر، والذى يؤكد ذلك قول الله تعالى : ﴿شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن﴾ .

(٢) رواه البيهقى فى «السنن الكبرى» .

(٣) روى ذلك الحافظ «أبو يعلى» .

(٤) وكذا رواه «ابن عساكر» .

وقـال رسـول الله « ﷺ » فى حق «زيد بن عـمـرو بن نفـيل [1]» : [«يبعث يوم القيامة أمة وحده»] .

ويروى لـ «ورقة بن نوفل» شعر كثير ، منه قوله :

وأخبار صدق خبرت عـن «محمـــد»
يخبرها عنه إذا غـــاب ناصـــح [2]
بأن «ابن عبد الله أحمـــد» مرســـل
إلى كل من ضمـت عليه الأباطـــح
وظنى بـه أن سيبعـــث صادقـــاً
كما أرسل العبدان «هود» و«صالـــح»
«وموسى» و«ابراهيم» حتى يرى لـــه
بهاء ومنشور مـن الحـق واضـــح
ويتبعـه حيـاً «لـؤى بـن غالـــب»
شبابهـــم والأشيبـــون الجحاجـــح
فإن أبق حتى يدرك النـاس دهـــره
فإنـى بـه مستبشـر الـود فـــارح
وإلا فإنـى يا «خديجـة» فاعلمـــى
عن أرضك فى الأرض العريضة سارح

وعن الرؤيا الصادقة التى كان يراها رسول اله « ﷺ » قبل الوحى والبعثة ، فقد قال «موسى بن عقبة» عن «الزهرى» عن «سعيد بن

---

(١) روى ذلك لحافظ «أبو يعلى» .
(٢) القصيدة فى (دلائل النبوة) لـ «البيهقى» .

المسبب «قال : [وكان فيما بلغنا أول ما رأى - رسول الله « ﷺ » - أن الله تعالى أراه رؤيا فى المنام فشق ذلك عليه، فذكرها لامرأته «خديجة»، فعصمها الله عن التكذيب، وشرح صدرها للتصديق، فقالت : أبشر . . فإن الله لم يصنع بك إلا خيراً، ثم إنه خرج من عندها . . ، ثم رجع إليها فأخبرها أنه رأى بطنه شق ثم غسل وطهر، ثم أعيد كما كان، قالت : هذا والله خير . . . فأبشر .

ثم استعلن له «جبريل» وهو بأعلى «مكة»، فأجلسه على مجلس كريم معجب، كان النبى « ﷺ » يقول : [أجلسنى على بساط كهيئة الدرنوك (١) فيه الياقوت واللؤلؤ] فبشره برسالة الله عز وجل، حتى اطمأن رسول الله «ص» فقال له «جبريل» : إقرأ . . . »] إلخ .

ونضيف إلى ما تقدم، ما ذكره الحافظ «ابن عساكر»، فيما رواه عن «سليمان بن طرخان» - التيمى -، حول بدء الوحى، فإن فيها ما يجلو بعض الجوانب، قال :

[بلغنا أن الله تعالى بعث «محمداً» رسولاً على رأس خمسين سنة من بناء الكعبة (٢)، وكان أول شيء اختصه به من النبوة والكرامة رؤيا كان يراها، فقص ذلك على زوجته «خديجة بنت خويلد»، فقالت له : أبشر فو الله لا يفعل الله بك الا خيراً .

فبينما هو ذات يوم فى «حراء» - وكان يفر إليه من قومه - إذ نزل عليه «جبريل»، فدنا منه، فخافه رسول الله « ﷺ » مخافة شديدة،

---

(١) الدرنوك : ستر له خمل - أهداب - .
(٢) أشهر الروايات أن ذلك كان قبل البعثة بخمس سنوات .

فوضع «جبريل» يده على صدره ومن خلفه -بين كتفيه -، فقال : اللهم احطط وزره، واشرح صدره، وطهر قلبه . . . ، يا «محمد» أبشر، فإنك نبي هذه الأمة . . ، إقرأ فقال له نبي الله - وهو خائف يرعد - : ما قرأت كتاباً قط، ولا أحسنه، وما أكتب . . وما أقرأ . . !

فأخذه «جبريل» فغته غتاً شديداً، ثم تركه . . . ، ثم قال له : إقرأ، فأعاد عليه مثله، فأجلسه على بساط كهيئة الدرنوك، فرأى فيه من صفائه وحسنه كهيئة اللؤلؤ والياقوت، وقال له : ﴿إقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ الآيات . . ، ثم قال له : لا تخف يا «محمد» إنك رسول الله، ثم انصرف .

وأقبل على رسول الله « ﷺ » همه فقال : كيف أصنع ؟ وكيف أقول لقومي؟

ثم قام رسول الله « ﷺ » وهو خائف، فأتاه «جبريل» من أمامه وهو في صعرته [(١)]، فرأى رسول الله « ﷺ » أمراً عظيماً ملأ صدره، فقال له «جبريل»: لا تخف يا «محمد»، «جبريل» رسول الله إلى أنبيائه ورسله، فأيقن بكرامة الله، فإنك رسول الله .

فرجع رسول الله « ﷺ » لا يمر على شجر ولا حجر إلا هو ساجد يقول : السلام عليك يا رسول الله؛ فاطمأنت نفسه وعرف كرامة الله إياه، فلما انتهى إلى زوجته «خديجة» أبصرت ما بوجهه من تغير لونه، فأفزعها ذلك، فقامت إليه فلما دنت منه جعلت تمسح عن

(١) عظم هيئته .

وجهه وتقول : لعلك لبعض ما كنت ترى وتسمع قبل اليوم !!!

فقال : «يا خديجة» أرأيت الذى كنت أرى في المنام، والصوت الذى كنت أسمع فى اليقظة وأهال منه، فإنه «جبريل» قد استعلن لى وكلمنى وأمرنى كلاماً فزعت منه، ثم عاد إلىَّ فأخبرنى أنى نبى هذه الأمة . . ، فأقبلت راجعاً . . ، فأقبلت على شجرٍ وحجارةٍ فقلن : السلام عليك يا رسول الله . . . »!!

فقالت «خديجة» : أبشر فو الله لقد كنت أعلم أن الله لن يفعل بك إلا خيراً، وأشهد أنك نبى هذه الأمة التى تنتظره يهود؛ قد أخبرنى به ناصح (١) غلامى، و«بحيرا» الراهب؛ وقد أمرنى أن أتزوجك منذ أكثر من عشرين سنة .

فلم تزل برسول الله « ﷺ » حتى طعم وشرب وضحك .

ثم خرجت إلى الراهب – وكان قريباً من «مكة» –، فلما دنت منه وعرفها قال : مالك يا سيدة نساء قريش؟ فقالت : أقبلت إليك لتخبرنى عن «جبريل»؟ فقال : سبحان الله ربنا القدوس . . ما بال «جبريل» يذكر فى هذه البلاد التى يعبد أهلها الأوثان !!؟ «جبريل» أمين الله ورسوله إلى أنبيائه ورسله، وهو صاحب «موسى» و«عيسى» .

فعرفت كرامة الله لـ«محمد» « ﷺ » !

---

(١) تعني غلامها «ميسرة»، وناصح صفته وليس إسمه، أما «بحيرى» الراهب فقد كرر لـ«ميسرة» ما قاله من قبل لـ«أبى طالب» .

ثم أتت عبداً - غلاماً - لـ «عتبة بن ربيعة» يقال له «عداس» (١) فسألته فأخبرها بمثل ما أخبرها به الراهب وأزيد . . ؛ قال : «جبريل» كان مع «موسى» حين أغرق الله «فرعون» وقومه، وكان معه حين كلمه الله على «الطور»، وهو صاحب «عيسى بن مريم»، الذى أيده الله به .

ثم قامت من عنده فأتت «ورقة بن نوفل» فسألته عن «جبريل» فقال لها مثل ذلك، ثم سألها : ما الخبر ؟؟ فأحلفته أن يكتم ما تقول له، فحلف لها، فقالت له : إن «ابن عبد الله» ذكر لى - وهو صادق أحلف بالله ما كذب، ولا كذبت - أنه نزل عليه «جبريل» بـ «حراء»، وأنه أخبره أنه نبى هذه الأمة، وأقرأه آيات أرسل بها فذعر «ورقة» لذلك وقال : لئن كان «جبريل» قد استقرت قدماه على الأرض، لقد نزل على خير أهل الأرض، وما نزل إلا على نبى، وهو صاحب الأنبياء والرسل يرسله الله إليهم . . ، وقد صدقتك عنه، فأرسلى إلى «ابن عبد الله» أسأله وأسمع منه قوله وأحدثه، فإنى أخاف أن يكون غير «جبريل»، فإن بعض الشياطين يتشبه به ليضل بعض «بنى آدم» ويفسدهم، حتى يصير الرجل بعد العقل الرضى مد لها مجنوناً .

---

(١) هو «عداس» الذى قدم لرسول الله «ﷺ» قطف العنب فى «الطائف» فلما أراد رسول الله «ﷺ» أن يأكل سمى الله تعالى، فاستغرب «عداس»، وسأله رسول الله «ﷺ» عن بلاده فقال : من «نينوى»، فقال له : من بلد «يونس بن متى»، فزاد استغراب «عداس» وقال : ما أدراك ما «يونس من متى»، فقال «ﷺ» : ذاك نبى وأنا نبى . . ! فأكب «عداس» يقبل رأس رسول الله «ﷺ» ويديه .

فقامت من عنده وهى واثقة بالله أن لا يفعل بصاحبها إلا خيراً، فرجعت إلى رسول الله « ﷺ » فأخبرته بما قال «ورقة»، فأنزل الله تعالى ﴿ن. والقلم وما يسطرون. ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾ - الآيات - .

فقال لها « ﷺ » : كلا والله . . . إنه «جبريل» .

فقالت له : أحب أن تأتيه - أى ورقة - فتخبره ، لعل الله أن يهديه .

فجاءه رسول الله « ﷺ »، فقال له «ورقة» : هذا الذى جاءك . . ! جاءك فى نور أو ظلمة ؟ فأخبره رسول الله « ﷺ » عن صفة «جبريل» وما رآه من عظمته، وما أوحاه إليه، فقال «ورقة» : أشهد أن هذا «جبريل»، وأن هذا كلام الله، فقد أمرك بشىء تبلغه قومك، وإنه لأمر نبوة، فإن أُدْرك زمانك أتبعك .

ثم قال : أُبَشِّر «ابن عبد المطلب» بما بشرك الله به] إ - هـ .

فى كيفية إتيان الوحى لرسول الله « ﷺ » !

روى الإمام «مالك» - رضى الله عنه - :

[أن «الحارث بن هاشم» سأل رسول الله « ﷺ » قال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحى؟ فقال : «أحياناً يأتينى مثل صلصلة (١) الجرس، وهو أشده على، فَيَفصم عنى وقد وعيت ما قال، وأحياناً يتمثل لى الملك رجلاً يكلمنى فأعى ما يقول»] .

---

(١) الصلصلة : صوت وقوع الحديد بعضه على بعض، وقال «الخطابى»: يريد «ﷺ» أنه صوت متدارك يسمعه، ولا يتبينه أول ما يسمعه، حتى يفهمه بعد .

أما عن حاله « ﷺ » من شدة ما ينزل عليه ويباشره به الملك ، فتقول «عائشة» - رضى الله عنها - فيما رواهُ عنها الإمام «أحمد» :

[ولقد رأيته « ﷺ » ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه يتفصد عرقاً] أخرجه «البخارى» و«مسلم» فى صحيحيهما من حديث «مالك» .

وفى «حديث الإفك» قالت «عائشة» :

﴿فو الله ما رام رسول الله « ﷺ » ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء (١) حتى إنه كان يتحدر منه مثل الجمان (٢) من العرق، وهو في يوم شات، من ثقل الوحى الذى نزل عليه»] .

وروى الإمام «أحمد» . . . . عن «أسماء بنت يزيد بن السكن» - الأنصاريه» - قالت :

[إنى لآخذة بزمام «العضباء» ناقة رسول الله « ﷺ » إذ نزلت عليه سورة «المائدة» كلها، وكادت من ثقلها تَدُقُّ عضد الناقة] - ورواه «البيهقى» فى«مجمع الزوائد» [٧/ ١٣] .

هذه الشدة والمعاناة التى كان يلقاها رسول الله « ﷺ » من نزول الوحى على قلبه الشريف لها خصوصيتها وأسبابها، ونحاول أن نقربها من خلال المعاينة، فالملائكة - عليهم السلام - أجسام نورانية لا ترى ولا تشاهد، كالمس الكهربي - التيار -؛ ولكنه يحس !!!،

---

(١) البرحاء : الحمى .
(٢) الجمانة : حبة تعمل من الفضة الدرة .

فإذا ما اتصل بالكينونة المادية البشرية صعقها وقضى عليها . . ! ولقد هيأ الله تعالى، مسبب الأسباب وواضع الخواص، ذواتاً معينة من خلقه الآدمى، وهم الأنبياء عليهم السلام - لتحمُّل ذلك، مع ما يلاقونه أثناء التلقى من شدة .

وهذا ما عبر عنه سيدنا رسول الله « ﷺ » من قوله : [«فغطنى . . ، أو «غتنى» . . .] .

وهذا ما رواه بعض الصحابة - رضوان الله عليهم - عن حاله « ﷺ » عند تلقى الوحى .

- والله تعالى أعلم -

ترتيب الآيات والسور القرآنية

هناك بعض السور القرآنية كانت تنزل على قلب رسول لله « ﷺ » جملة واحدة، وبعضها كانت تنزل آياتها منجمة - مفرقة -؛ فكان رسول الله « ﷺ » يقول للكتبة أو الحفظة ضعوا الآية (الفلانية) بعد الآية الفلانية) وقبل الآية (الفلانية) أو : ضعوا السورة (الفلانية بعد السورة الفلانية) وقبل السورة (الفلانية) .

فالترتيب الذى نراه الآن ترتيب توقيفى - كما يقول العلماء - عن رسول الله « ﷺ » عن «جبريل» - عليه السلام - عن رب العزة - سبحانه وتعالى - .

ولقد شد انتباهى، ولفت نظرى، وتأملته طويلاً ورود سورة «القدر» فى الترتيب بعد سورة «العلق»، وصَدْرها كما هو معلوم

ومشهود ومتواتر أنه أول ما نزل من القرآن الكريم : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ .

ولا يخفى على القارىء اللبيب معنى ذلك ، وغرضه فى التواصل .

ليلة القدر ..!

وللحديث عن ليلة القدر . . . ليلة (القيمة) المطلقة ، التى ما بعدها قيمة ، أو ليلة (التقدير) الربانى الجليل ، يقول صاحب (الظلال) - عليه من ربه الرحمة والرضوان (1) - :

(الحديث فى هذه السوره عن تلك الليلة الموعودة المشهودة ، التى سجلها الوجود كله فى فرحٍ وغبطةٍ وأبتهال ، ليلة الاتصال المطلق بين الأرض والملأ الأعلى ، ليلة بدء نزول القرآن على قلب «محمد» «ﷺ» ليلة ذلك الحدث العظيم الذى لم تشهد الأرض مثله فى عظمته ، وفى دلالته ، وفى آثاره من حياة البشرية جميعاً .

العظمة التى لا يحيط بها الإدراك البشرى ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ① وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ② لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ والنصوص القرآنية التى تذكر هذا الحدث تكاد ترف وتنير . . . ، بل هى تفيض بالنور الهادىء السارى الرائق الودود ، نور الله المشرق فى قرآنه : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ . . ونور الملائكة وهم فى غدوِّهم

---

(1) (ج : 6) (ص : 3944) - مقتطفات من التفسير - .

ورواحـهم طوال الليلة بين الأرض والملأ الأعلى : (وتنزّل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر . . .)، ونور الفجر الذى تعرضه النصوص متناسقاً مع نور الوحى، ونور الملائكة، ونور السلام المرفرف على الوجود وعلى الأرواح السامية عن هذا الوجود : ﴿سلام هى حتى مطلع الفجر﴾) .

(وحين ننظر اليوم من وراء الأجيال المتطاولة إلى تلك الليلة المجيدة السعيدة، ونتصور ذلك المهرجان العجيب الذى شهدته الأرض فى هذه الليلة، ونتدبر حقيقة الأمر الذى تم فيها، ونتملى آثاره المتطاولة فى مراحل الزمان، وفى واقع الأرض . . ، وفى تصورات القلوب والعقول . . . ، فإننا نرى أمراً عظيماً حقاً !! وندرك طرفاً من مغزى هذه الإشارة القرآنية إلى تلك الليلة : ﴿وما أدراك ما ليلة القدر﴾ . !!!!!

لقد فرق فيها من كل أمر حكيم، وقد وضعت فيها من قيم وأسس وموازين، وقد قررت فيها من أقدار أكبر من أقدار الأفراد . . . أقدار أمم ودول وشعوب، بل أكثر وأعظم : أقدار حقائق وأوضاع وقلوب .

ولقد تغفل البشرية - لجاهليّتها ونكَد طالعها - عن قدر تلك الليلة، وعن حقيقة ذلك الحدث، وعظمةَ هذا الأمر، وهى منذ أن جهلت هذا وأغفلته فقدت أسعد وأجمل آلاء الله عليها، وخسرت السعادة والسلام الحقيقى - سلام الضمير وسلام البيت وسلام المجتمع - الذى وهبها إياه الإسلام، ولم يعوضها عما فقدت ما فتح عليها من أبواب كل شىء من المادة والحضارة والعمارة . . ، فهى

شقيّة . . ، شقيّة على الرغم من فيض الإنتاج وتوافر وسائل المعاش .

لقد انطفأ النور الجميل الذى أشرق فى روحها مرة ، وانطمست الفرحة الوضيئة التى رفت بها وانطلقت إلى الملأ الأعلى . . ! وغاب السلام الذى فاض على الأرواح والقلوب . . . فلم يعوضها شىء عن فرحة الروح ونور السماء ، وطلاقة الرفرفة إلى عليين . !

ونحن - المؤمنين - مأمورون أن لا ننسى ولا نغفل عن هذه الذكرى ، وقد جعل لنا نبينا - ﷺ - سبيلاً هيناً ليّناً لاستحياء هذه الذكرى فى أرواحنا لتظل موصولة بها أبداً ، موصولة كذلك بالحدث الكونى الذى كان فيها ، وذلك فيما حثنا عليه من قيام هذه الليلة من كل عام ، ومن تحريها والتطلع إليها من الليالى العشر الأخيرة من رمضان . . . .

فى الصحيحين [«تحروا ليلة القدر فى العشر الأواخر من رمضان»] ؛ وفى الصحيحين كذلك : [«من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»] .

والإسلام ليس شكليات ظاهرية . . ، ومن ثم قال رسول الله «ﷺ» فى القيام فى هذه الليلة أن يكون : (إيماناً واحتساباً) ، وذلك ليكون هذا القيام استيحاءً للمعانى الكبيرة التى اشتملت عليها هذه الليلة (إيماناً) ، وليكون تحرّراً وخلوصاً و . . (احتساباً) ؛ ومن ثم تنبض فى القلوب حقيقة معينة بهذا القيام ، ترتبط بذلك المعنى الذى نزل به القرآن] - هـ .

لقد كانت ليلة القدر ليلة تتويج الإرهاصات بنبوة خاتم الأنبياء . . !

إنها ليلة «محمد بن عبد الله» - صلوات الله وسلامه عليه - .

(١٩) الخاتمـــــة

وبعد ، عزيزى القارئ . . .

فقد طوفنا فى الإرهاصات فى كل المساحات الزمنية والبشرية ، منذ أن كان «آدم» عليه السلام - أبو البشر - بين طينته ونَفْخ الروح فيه ، وعلى امتداد القرون والأجيال والآمال ، إلى أَن كانت ليلة القدر ، ليلة الختم للإنسانية عامَّة ببعثة سيدنا «محمد» « ﷺ » ، لتحمل الرسالة وتتحملها ، وتحققها في الأرض حباً وسلاماً وعدلاً .

إنها خاتمة من حيث المعنى الزمنى والواقع البشرى ، ولكنها بداية . . ، بداية حقاً وفعلاً ، بانبلاج النور كاملاً يضىء بربانيته القلوب والعقول ، ويهدى إلى صراط مستقيم . .

أرجو الله تعالى أن أكون قد وفِّقت فى عملي هذا ، وإن كان تقصير فمن عندى ، وأسأله - سبحانه وتعالى - أن يجعل هذا العمل فى ميزان حسناتى يوم القيامة ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، وعمل صالح مُتَقَبَّل .

والحمد لله رب العالمين ،،،

الفهرست

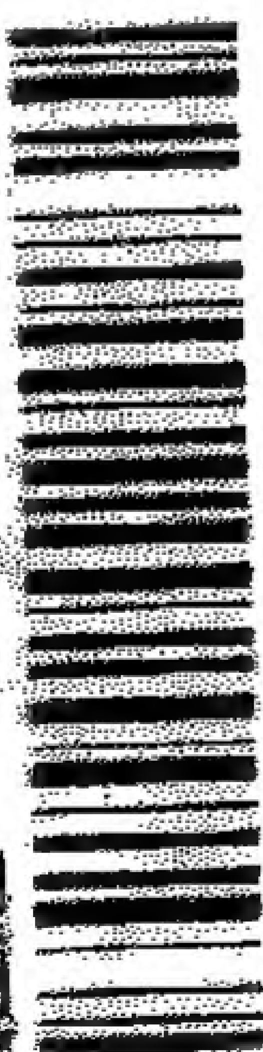
الموضوع	الصفحة

دار النصر للطباعة الاسلامية
٢ ـ شارع نشاطي شبرا القاهرة
ت : ٥٧٨٧٩١٨ - ٥٧٩٩٩٤٢
الرقم البريدي : ١١٢٣١

إرهاصات نبوة

خاتم المرسلين محمد ﷺ

محمد علي قطب



ISBN 977-339-119-1

